جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

فنقلات الفخر الرازي في تفسير سورة البقرة

(عرض ودراسة)

إعداد الأستاذ الدكتور

يحيى زكريا عبد المنعم أبو العزم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

فنقلات الفخر في تفسير سورة البقرة (عرض ودراسة)

يحيى زكريا عبد المنعم أبو العزم.
قسم أصول الدين، شعبة التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر
الإيميل: Yahiazakaria864 @ azhar.edu.eg

ملخص البحث

الفنقلة أسلوب نافع في التعليم والتدريس والتأليف، ومن فوائده شحذ الذهن، وتحفيز الفكر، وتذليل صعب المسائل، ودفع التوهم والإشكالات.

وقد وردت صيغ الفنقلة في غالب كتب التفسير، لكن المفسرين يتفاوتون في هذا ما بين مقل ومكثر، وقد وظّف المفسرون هذه الطريقة في توسيع وإثراء المعاني القرآنية، والكشف عن الغوامض، واستطاعوا بفضل ذلك أن أن يناقشوا المسائل المختلفة من خلال هذا الأسلوب في سائر فنون العلم في تفسيرهم لكتاب الله الكريم.

وقد استخدم الفخر (رحمه الله) أسلوب الفنقلة في بيان معنى النص الكريم، وإبراز المراد منه، وإيصال هذا المعنى للقارئ بأقرب صورة ممكنة، ووقف الرازي وقفات جمالية تبين رقي الأسلوب القرآني، ووظّف الفخرُ الفنقلة أيضًا لبيان ما حوته الآيات القرآنية الكريمة من أحكام وحِكَمٍ، ودفع الفخرُ بالفنقلة غير المراد مما قد يُتوهم من ظاهر الآيات القرآنية مستعملاً في ذلك الدلالات اللغوية والبلاغية والمنطقية، واستطاع بفضل هذا أن يلج أبوابًا مختلفة الفنون؛ ليدحض تلك أباطيل مثيري الشبهات المتبجحين بجهلهم!!!

والصلاة والسلام على خير الأنام، والحمد لله رب العالمين

الكلمات المفتاحية: الرازي– الفنقلات – سورة البقرة – العلماء– المفسرون.

Fnaqalat of Pride in the Interpretation of Surat Al-Baqarah

Yahia zakaria abd elmonem

Department of Fundamentals of Religion, Department of Interpretation and Quranic Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys in Cairo, Al-Azhar University, Cairo

Email: Yahiazakaria864@ azhar.edu.eg

Research Summary

Al-Fanqla is a useful method in teaching, teaching and authorship, and its benefits include sharpening the mind, stimulating thought, overcoming difficult issues, and pushing back illusions and problems.

The commentators employed this method to expand and enrich the Qur'anic meanings, and to reveal the mysteries, and thanks to that, they were able to discuss various issues through this method in all the arts of science in their interpretation of the Noble Book of God.

The reader of the interpretation of Al-Razi reads this phrase a lot; Namely: If It was said? We said: Al-Fakhr, may God have mercy on him, used the method of falsification in explaining the meaning of the noble text, highlighting what is meant by it, and conveying this meaning to the reader as close as possible!!! Al-Razi's endowments are aesthetic stops that show the sophistication of the Qur'anic style, and we can see this through his rhetorical moves; Where he showed us the many benefits of far-reaching merits, and showed the ranks of goodness in noble words. Al-Fakhr employed the fangala to explain the rulings and rulings contained in the noble Qur'anic verses. He pushed the pride in the unintended shift of what might be illusion from the apparent verses of the Qur'an, using linguistic, rhetorical and logical connotations, and thanks to this, he was able to enter the doors of various arts; To refute those falsehoods of the suspicious who boast of their ignorance!!! Imam al-Razi resorted to arguing with al-Hajjaj with his opponents; He supposes one of his opponents to ask a specific question; He answers it, including cut evidence .And prayers and peace be upon the best of people, and praise be to God, Lord of the Worlds.

Keywordes: AlFakhr AlRazi – AlFanqlat – Surat AlBaqarah – Scholars – the Commentators

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، الحي الذي لا إله إلا هو، قيوم السماوات والأرضين، والصلاة والسلام على خير البرايا ونور الأنوار وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،،

فإنه لمّا كان الفلاح لازمًا لمن أنفق عمره في العلم النافع والعمل الصالح، وكمّل غيره في هذين الأمرين؛ كان الأحرى بالإنسان أن يقضي سويعات عمره فيما ينال به المطالب العالية، ويتخلّص به من الخسران؛ وليس ذلك إلا بالإقبال على تعلُّم القرآن الكريم، واستخراج بعض ما أودعه الله تعالى فيه من كنوز العلم النافع والحكمـــة العالية.

وقد بحث العلماء في هذه الكنوز، فكشفوا لنا عن ثروات هائلة في مجالات مختلفة!!!

ومن هذه الثروات التي يعثر عليها من يطالع ثنايا كتبهم الفاخرة: أسلوب الفنقلات، وهي طريقة سلكها بعض المفسرين في طرح إشكالية في قضية ما؛ حيث يثيرون أسئلة متوقعة قد ترد على ذهن القارئ لآيات الكتاب الكريم، ثم يجيبون عنها ويدلون بدلوهم فيها، ويصوغونها بقولهم: (فإن قلتم: كذا وكذا...قلنا: كذا وكذا...، أو: فإن قيل: كذا وكذا... قلنا: كذا وكذا...، أو: فإن قالوا: كذا وكذا... قلنا: كذا وكذا...، أو: فإن قلت: كذا وكذا... قلنا: كذا وكذا...، أو فإن قال قائل: كذا وكذا... قلنا: كذا وكذا...).

وقد تطرّق المفسرون الذين استعملوا ذلك الأسلوب التعليمي المهم من خلاله لجوانب عدة تسمح لهم بعَرْض القضايا المختلفة التي يرومون مناقشتها، سواء

كانت عقدية أو لغوية أو بلاغية أو فقهية؛ مما يعطي لهذا الموضوع بالغ الأهمية؛ لأن المفسرين ينطلقون في مناقشتهم للقضايا التي يبحثونها من تصور شامل للآيات التي يفسرونها.

وقد اصطُلح على تسمية هذا الأسلوب على سبيل النَّحت بالفنقلات!!

ومن العلماء الذين اعتنوا بهذا الأسلوب: الإمام الرازي؛ ذلكم العلم الكبير، والذي يغني اسمه عن التعريف به، فالناظر في تفسيره يجده يستخدم هذه العبارات كثيرا، ولذا فإنني انطلقت أتقصاها، فكوّنت لي مادة جديرة بالدراسة، ومن الله الفضل أولا وآخرا.

مشكلة البحث:

هذا البحث يجيب عن أسئلة هي:

١- ما هي فوائد أسلوب الفنقلة؟

٢- ما مدى عناية المفسرين عامة بأسلوب الفنقلة؟

٣- ما مدى عناية الإمام الرازي خاصة بأسلوب الفنقلة؟

٤- ما الألفاظ التي وردت بها هذه الطريقة في تفسير الإمام الرازي؟

٥- ما المجالات والأبواب العلمية التي تندرج تحتها مسائل الفنقلة التفسيرية عند الإمام الرازي؟

٦- ما الذي يمكن أن يضاف أو يستدرك عليه؟

أهمية البحث وأهدافه:

١- بيان فوائد هذا الأسلوب في التعليم والتأليف.

٢- إبراز عناية المفسرين بأسلوب الفنقلة، وإظهار براعتهم في توظيف هذا الأسلوب في كشف الغوامض ودفع التُّوهم غير المراد الذي قد يتبادر للبعض من ظاهر النص القرآني الكريم، وبيان وجوه إعجازه، كل هذا من الأهمية بمكان.

٣- بيان صيغ الفنقلة عند الإمام الرازي.

٤- حصر صيغ الفنقلة في سورة البقرة عند الإمام الرازي.

أسباب الاختيار:

١- الاقتداء بالسلف الصالح والأئمة شموس العلم في العناية بالنص الكريم، وإظهار ما فيه من هدايات بقدر الطوق.

٢-كثرة الفنقلات عند الإمام الرازي.

٣- ما تضمنته الفنقلات من فوائد علمية كثيرة؛ لكونها في عدة علوم؛ مما يحمل على مطالعة العديد من الكتب القيمة في فنون العلم المختلفة.

٤- لم أقف على دراسة عنيت بفنقلات الإمام الرازي.

حدود البحث:

تتبعت فنقلات الإمام الرازي في سورة البقرة.

الدراسات السابقة:

١- فنقلات الزمخشري في سورة يوسف (عليه السلام) دراسة تفسيرية، لدكتور نزار عطا الله أحمد صالح، منشور في مجلة البحوث والدراسات الإسلامية التابعة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد ١٦ لسنة ٢٠١٣م.

٢- الفنقلة عند الزمخشري بين الدلالة والحجاج للاستاذ الدكتور عادل راضي الزركاني، منشور بمجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد ١٩ لسنة ٢٠١٥

٣- ظاهرة الفنقلة عند المفسرين دراسة تمثيلية تحليلية، رسالة ماجستير للباحث/ سمير عبد الرسول علي، بكلية الآداب جامعة المنوفية ٢٠١٧م، إشراف: اد/ مصطفى معتمد، اد/ مصطفى أبو طاحون.

٤- فنقلات المفسرين. دراسة نظرية وتطبيقية على سورة الفاتحة، للدكتورة خلود شاكر العبدلي، جامعة القصيم، مجلة العلوم الشرعية، العدد ٣ لسنة ٢٠١٩م.

٥- فنقلات الإمام الطبري في تفسيره لمعاني المفردة القرآنية. نماذج تطبيقية، للباحثـــة صفاء عبد اللطيف عبد الحميد، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية التابعة لديوان لمركز البحوث والدراسات الإسلامية بديوان الوقف السني بدولة العراق، العدد ٥٩ لسنة ٢٠٢٠م.

٦- افتراضات الزمخشري في الكشّاف. دراسة تطبيقية في علم المعاني، للدكتور عبد العزيز الجودي بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسطنطينة بالجزائر بكلية اللغة العربية.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي ويظهر في تتبع الفنقلات عند الفخر في سورة البقرة، والمنهج التحليلي ويظهر في دراسة الأمثلة وبيان الفوائد المستخرجة منها.

الإجراءات الخاصة:

١- طالعت تفسير الإمام الرازي مطالعة دقيقة فيما يتعلق بظاهرة الفنقلة، واستقرأت صيغها في تفسيره لسورة البقرة.

٢- بينت مدى جهده في الفنقلة محل الدراسة، وما يمكن أن يضاف إليه أو يستدرك عليه.

٣- قسمت الفنقلات بحسب أبوابها العلمية في مختلف العلوم والفنون، وبحسب فصول ومباحث هذا البحث، وبينت فوائدها وآثارها في تفسير النص الكريم.

٤- عزوت الآيات.

٥- قمت بتخريج الأحاديث النبوية الموجودة في البحث؛ فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما، اكتفيت بالإحالة إليهما، وإن كان في غيرهما، ذكرت موضعه، مع بيان درجته.

٦- توخيت قدر الإمكان الدقة في التعبير، والسهولة في الأسلوب، وراعيت الأمانة العلمية في النقل عن المصادر، فأثبت ما نقلت بقولي: (ك كذا ص كذا) إذا كان الكلام منقولاً بنصِّه، ويراجع: (ك كذا ص كذا) إذا كان منقولاً بتصرف.

٧- عرّفت بكل ما ظننته مشكلاً قدر الإمكان، وترجمت للأعلام الواردة في البحث، واستثنيت من ذلك بعض مَن عمّت شهرتهم وذاع فضلهم، وقد ترجمت للعلم عند ذكري له أول مرة، والله هو الهادي للصواب.

خطة البحث:

قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وفهارس:

- أما **المقدمة:** فذكرت فيها مشكلة البحث، وأهميته، وأسباب اختياره، وحدوده، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطتي فيه.
- وأما **الفصل الأول:** فهو عن الفخر الرازي. حياته وتفسيره.
- وأما **الفصل الثاني:** فهو عن أسلوب الفنقلة وعناية العلماء به.
- وأما **الفصل الثالث:** فهو عن أسلوب الفنقلة عند المفسرين.
- وأما **الفصل الرابع:** فهو عن مجالات استخدام أسلوب الفنقلة عند الإمام الرازي في تفسير سورة البقرة، وفيه مباحث:

الأول: بيان معنى النص القرآني الكريم.

الثاني: تجلية وجوه الإعجاز البلاغي.

الثالث: تعليل الأحكام القرآنية وبيان حكمها.

الرابع: دفع الشبه وتوهم غير المراد.

الخامس: الحجاج والفنقلة.

وبعد،،،

فقد اجتهدت في السلامة من الزلل قدر الإمكان؛ لكني لا أشك في وقوعه؛ فالبضاعة قليلة، والباع قصير، والذنوب كثيرة؛ ولكن حسبي أني أردت أن أستتير بآراء العلماء المحققين، وأن ألاحقهم للأخذ عنهم بما يسّر الله لي من تهذيب ألفاظهم واستخراج درر المعاني منها، جاعلاً المولى جل شأنه قصدي وحسبي، فأسأله تعالى القبول والتوفيق، وأن يثبت أقدامنا على منهاج الهدى، وأن ينطقنا بما فيه رضاه، وأن يأخذ بنواصينا إلى البر، وألا يكلنا إلى أنفسنا، سبحانه له الخلق والأمر، وإليه تصير الأمور.

اللهم اغفر زلاتي، وأقل عثراتي، وخلّصني من آفاتي، وأيدني بالتوفيق في الدنيا والآخرة

الفصل الأول

الفخر الرازي. حياته وتفسيره

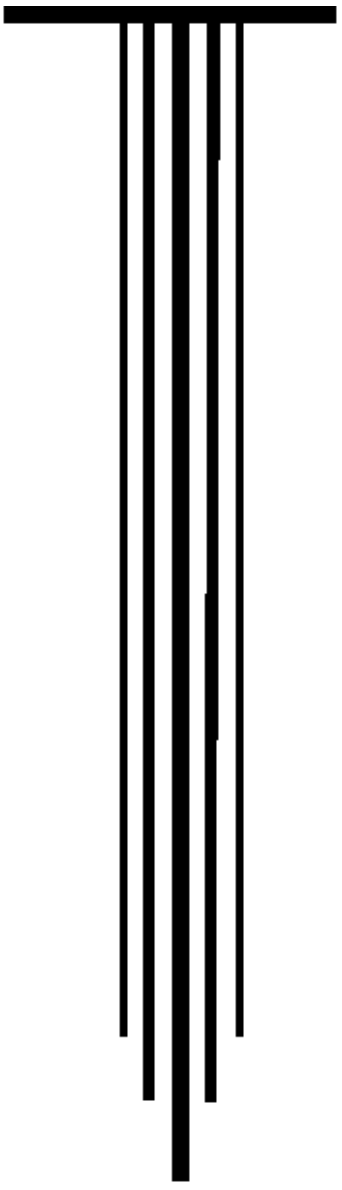

حياة الفخر الرازي:

هو العلامة الكبير، ذو الفنون، سلطان المتكلمين، شيخ الإسلام، أبو عبد الله[١] محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، الرازي مولدًا، القرشي التيمي البكري أصلاً[٢]، الملقَّب بفخر الدين، والمعروف بابن خطيب الري، فريد دهره، الأشعري الشافعي؛ وُلد الفخر في شهر رمضان سنة ٥٤٤هـ.[٣]

ونشأ الفخر نشأة علمية؛ فقد كان أبوه ضياء الدين عمر بن الحسين إمامًا أشعريًّا وشافعيًّا كبيرًا، وكان خطيبًا مفوَّهًا ومحدِّثًا وأديبًا.[٤]

١ــ يكنى الفخر في أكثر كتب التراجم بأبي عبد الله؛ كوفيات الأعيان ٢٤٨/٤، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٦٥/٢، ويكنى في بعض الكتب بأبي المعالي؛ كالبداية والنهاية ٦٦/١٣؛ ويراجع: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص ١٣.

٢ــ نصت كثير من كتب التراجم على أن أصل الفخر عربي قرشي بكري – وفيات الأعيان ٢٤٨/٤– وقد ألّف المروزي النسّابة ت ٦٣٢هـ كتاب البكري، ووصل فخر الدين بقريش – يراجع: هدية العارفين للباباني ١١٣/١– ولعل تأليف كتاب البكري هذا سببه أن بعض الناس قد حاول الحطّ من منزلة الفخر بجعله فارسيًّا، يراجع: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص ١٣.

٣ــ يراجع: وفيات الأعيان ٢٤٨/٤ وما بعدها، وطبقات المفسرين للسيوطي ١٠٠/١.

٤ــ اشتغل ضياء الدين عمر في الأصول على أبي القاسم الأنصاري ت ٥١٢هـ، وهو على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وهو على الأستاذ الإسفراييني، وهو على أبي الحسن الباهلي ت ٣٧٠هـ، وهو على الإمام الأشعري، واشتغل في الفروع على الإمام البغوي، وهو على القاضي الحسين بن محمد المروزي ت ٤٦٢هـ، وهو على الفاضل الفقيه أبي بكر عبد الله بن أحمد الملقب بالقفال ت ٤١٧هـ، وهو على أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي ت ٣٤٠هـ، وهو على أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج ت ٣٠٦هـ، وهو على أبي القاسم عثمان بن سعيد الأنماطي ت ٢٨٨هـ، وهو على أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني صاحب الإمام الشافعي ت٢٦٤هـ، وهو على الإمام الشافعي (ﷺ)؛ يراجع: وفيات الأعيان ٢٥٢/٤.

والفخر أيضًا كان ربّ أسرة؛ فقد خلّف ابنين وبنتًا؛ أما الأكبر فهو محمد الملقب بلقب جده ضياء الدين، والأصغر لُقِّب بشمس الدين، ثم بفخر الدين بعد وفاة والده؛ وكلاهما له حظٌّ من العلوم؛ إلا أن علامات الفطنة والذكاء الخارق ظاهرة منذ الصغر على الأصغر؛ وهو الذي قال عنه والده: إن عاش ابني هذا فإنه يكون أعلم مني.(١)

وقد مات ضياء الدين محمد سنة ٦٠١هـ؛ وبثّ الرازي في تفسيره الحزن عليه(٢)، وأما البنت فقد تزوجها الوزير علاء الدين وزير الملك خوارزم شاة؛ وهو رجل فاضل.(٣)

وكان أبو عبد الله جميل الصورة، بهي الطلعة، ضخم الجسم، كبير اللحية، عظيم الصدر والرأس، جهوري الصوت، ذا وقار وهيبة.(٤)

وأما سلوك الفخر فقد كان كريم الأخلاق، حسن العشرة، صبورًا على خصومه، لا يعتمد إلا على الله، مكثرًا من البكاء، وعطفه ورفقه مشهـــود؛ فإن حمامة سقطت في مجلسه في يوم شات، وكان يطاردها جارح، فرقّ لها، ونهض، وأخذها بيديه(٥)؛ وفي هذا يقول ابن عنين(٦):

١ــ يراجع: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٤٦٥، والتفكير الفلسفي لدى الفخر الرازي ص ٣٤.

٢ــ مفاتيح الغيب ١٨/١٨١ – ١٨٢، ط: دار الكتب العلمية.

٣ــ يراجع: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٤٦٦، والتفكير الفلسفي لدى الفخر الرازي ص ٣٦.

٤ــ يراجع: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥/٢١.

٥ــ يراجع: وفيات الأعيان ٤/٢٥١، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/٨٠ وما بعدها.

٦ــ هو شرف الدين محمد بن نصر الله بن مكارم بن حسن بن عنين الدمشقي، كان من فحول الشعراء، رحل كثيرًا ومدح الملوك والوجهاء، مات سنة ٦٣٠هـــ؛ يراجع: سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٦٣، ولسان الميزان ٥/٤٠٥.

من نبّأ الورقاء أن محلكـــــــم * حرمٌ وأنك ملجأٌ للخائـــــــــف
وفدت عليك وقد تدانى حتْفهـــا * فحبوتها ببقائها المستأنــــــف
لو أنها تُحبـــــى بمـــالٍ لانثنت * مـــن راحتيك بنائلٍ متضاعف[(١)]

وشيوخ الفخر كثيرون؛ منهم والده كما ذكرت سابقًا؛ وبعد موته اتصل الفخر بالكمال السِّمناني[(٢)] واشتغل عليه مدة، ثم اتصل بالمجد الجيلي[(٣)]الذي كان من كبار الحكماء في زمانه؛ ولازمه في حلِّه وترحاله.[(٤)]

ولم يكتف الفخر بالأخذ عن مشايخ عصره؛ بل اطّلع على تصانيف جليلـــة، ولم يتوقف عند علم معين؛ واستفاد من جميع ما وقع تحت يده؛ واستغل ما حباه الله تعالى به من الذكاء النادر وحدة الذهن والحافظة المستوعبة، حتى حصّل لنفسه استقلالية فكرية في جميع علوم عصره، واشتهر في الآفاق؛ فكان (رحمه الله) مفسرًا أصوليًّا فقيهًا متكلمًا فيلسوفًا، وكان الناس يقصدونه من البلاد على اختلاف فنونهم في العلوم، فكان كل منهم يجد عنده الغاية القصوى فيما يرومه منه، والأعمال التي خلّفها لنا هي أصدق دليل على ما قيل، وعلى رأسها تفسيره الكبير الذي حفل بشتى فنون الثقافة في عصره.

والفخر يبرز لنا ذلك في وصيته التي أملاها قبل وفاته فيقول: "اعلموا أني كنت رجلاً محبًّا للعلم؛ فكنت أكتب من كل شيء شيئًا لأقف على كميته وكيفيتـــه؛ حقًّا كان أو باطلا."[(٥)]

١ــ يراجع: وفيات الأعيان ٢٥١/٤، وطبقات الشافعية الكبرى ٨٧/٨.
٢ــ هو أبو نصر الكمال أحمد بن زِر بن كُم بن عقيل ت ٥٧٥هــ، وسِمْنان: بلدة بالقرب من الري؛ يراجع: طبقات الشافعية الكبرى ١٦/٦ – ١٧، ومعجم البلدان ٢٥١/٣.
٣ــ نسبة إلى جيلان؛ وهي اسم لبلاد كثيرة بالقرب من طبرستان؛ يراجع: معجم البلدان ٢٠١/٢.
٤ــ يراجع: وفيات الأعيان ٢٥٠/٤، وطبقات الشافعية الكبرى ٨٦/٨.
٥ــ طبقات الشافعية الكبرى ٩١/٨.

وفي كل مكان كان يذهب إليه الفخر كان التلاميذ يتهافتون عليه على اختلاف فنونهم العلمية، وكان كل منهم يجد عند الفخر الغاية القصوى مما يريده منه، ولقد حمل هؤلاء التلاميذ من بعده لواء فكره، وساروا على نهجه، فزادوا من شهرته، وقد ذكر المؤرخون عددًا منهم؛ وهم:

- محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان، كان ملكًا جليلاً، عالي الهمة، كثير الحروب، واسع الممالك؛ ذلّت له الأمم إلى أن قُهر بخروج التتار؛ ومات سنة ٦١٧هـ.[١]

- إبراهيم بن علي بن محمد السلمي المعروف بالقطب المصري، من كبار تلامذة الإمام، قُتل بنيسابور لمّا استباحها التتار سنة ٦١٨هـ.[٢]

- قاضي القضاة شمس الدين الخُوَيّي - نسبة إلى خُوَي: مدينة بأذربيجان- أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر ت ٦٣٧هـ؛ وقيل: هو الذي أتمّ التفسير الكبير، وكان من أكابر الأعلام، ولي قضاء القدس ثم حلب ثم القاهرة.[٣]

- أفضل الدين محمد بن عبد الملك الخونجي، ولي قضاء قضاة القاهرة، توفي سنة ٦٤٦هـ، ودُفن بسفح المقطم.[٤]

- إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني الذي أملى عليه الفخر وصيته.[٥]

١ـ يراجع: طبقات الشافعية الكبرى ٨٦/٨، وتاريخ الإسلام للذهبي ٣٠٨/٤٥.

٢ـ يراجع: طبقات الشافعية الكبرى ١٢٠/٨، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٥٠/٢.

٣ـ يراجع: طبقات الشافعية الكبرى ١٧/٨، والبداية والنهاية ٣٩٨/١٣، ومعجم البلدان ٤٠٨/٢.

٤ـ يراجع: تاريخ الإسلام للذهبي ٢٢٥/٥٠، حيث ذكر أنه من تلامذة الفخر عند ترجمته للبيلقاني.

٥ـ يراجع: تاريخ الإسلام ٢٢٠/٤٣.

هذا، وقد خلّف الفخر أيضًا تركةً ضخمة من المؤلفات الجليلة، فلم تحُل الاضطرابات السياسيـــة، وكثرة ترحاله وأشغاله دون التأليف، ورُزق في مؤلفاته سعادة عظيمة؛ حيث أقبل الناس عليها واشتغلوا بها.

واهتم المؤرخون بذكر مؤلفات الفخر، واختلفوا في عددها، وفي صحة نسبة بعضها إليه؛ فالبعض يجعلها ثلاثة وعشرين مؤلفًا[١]، بينما يجعلها البعض نحو مائتي مؤلَّف.[٢]

ومن المؤلفات المطبوعة للفخر: كتاب الأربعين في أصول الدين، وأساس التقديس في علم الكلام، وأسرار التنزيل وأنوار التأويل، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، وشرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا، وعصمة الأنبياء، ولوامع البينات في شرح أسماء الله الحسنى والصفات، والمباحث المشرقية، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، والمحصول في علم الأصول، والمطالب العالية من العلم الإله، ومفاتيح الغيب، ومناقب الإمام الشافعي، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز.

ومن المؤلفات التي لها مخطوطات ولم تُطبع: بحر الأنساب، والخلق والبعث، وزاد المعاد (في التصوف)، وسر الأسرار (في فضائل الأعشاب والأشجار)، وشرح الكليات للقانون لابن سينا في الطب، وشرح سَقْط الزَّنْد[٣]، ومقالات الإمام فخر الدين الرازي: عبارة عن حكم مسجوعة، والهيئة، والورد: له نسخة خطية بدار الكتب المصرية ٩ مجاميع.

١ــ يراجع: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٨٧.

٢ــ يراجع: البداية والنهاية ١٣/٦٦.

٣ــ سقط الزند: هو ديوان لأبي العلاء المعري – يراجع ترجمته في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١/٣١٥ وما بعدها– وهو مطبوع بوزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر سنة ١٩٤٥م، والزند: هو العود الذي يُقدح به النار؛ يراجع: الصحاح ٢/٤٨١.

ومن المؤلفات التي لا نعرف عنها إلا عناوينها المذكورة في المصادر:

- **إبطال القياس:** ورد ذكره في الوافي بالوفيات ٢٥٥/٤، وأخبار الحكماء ١٩٢/١.

- **الأخلاق:** ورد ذكره في أخبار الحكماء ١٩٢/١، وعيون الأنباء ٣٠/٢.

- **إرشاد النظّار إلى لطائف الأسرار:** ورد ذكره في كتاب الفخر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٩٢، وورد ذكره في وفيات الأعيان ٢٤٩/٤، والوافي بالوفيات ٢٥٥/٤.

- **التحبير في علم التعبير:** ورد ذكره في هدية العارفين ١٠٧/٢، وكشف الظنون ٣٥٤/١.

- **التشريح من الرأس إلى الحلق:** أحال إليه الفخر في شرح عيون الحكمة ٢٢٦/٢، ط: مكتبة الأنجلو مصرية – ١٩٨٦م، وورد ذكره في الوافي بالوفيات ٢٥٦/٤.

- **تعجيز الفلاسفة:** ورد ذكره في عيون الأنباء في الوافي بالوفيات ٢٥٦/٤.

- **الجبر والقدر:** أشار إليه الفخر في مفاتيح الغيب ١٠٠/١٣ قائلاً: "أطنبنا الكلام في هذا الدليل في كتاب الجبر والقدر"، وورد ذكره في أخبار الحكماء ١٩٢/١.

- **سراج القلوب:** ورد ذكره في أخبار الحكماء ١٩١/١، وموضوعه أسئلة وُجِّهت إلى النبي (ﷺ) عن خلق العالم ونهايته وتاريخ الأنبياء (عليهم السلام).

- **شرح المفصل في النحو (للزمخشري):** ورد ذكره في أخبار الحكماء ١٩٢/١، والوافي بالوفيات ٢٥٥/٤، وطبقات الشافعية ٦٦/٢، وطبقات المفسرين للسيوطي ١٠٠/١.

- **شرح نهج البلاغة (للإمام علي (رضي الله عنه)):** ورد ذكره في أخبار الحكماء ١٩٢/١، والوافي بالوفيات ٢٥٥/٤، ولم يتمه.

– **الهندسة:** ورد ذكره في عيون الأنباء ٣٠/٢، وتاريخ الإسلام ٢١٧/٤٣.

هذا، وقد ذكر الدكتور محمد صالح الزركان بعض الكتب والرسائل التي نُسبت عن طريق الخطأ للفخر الرازي، وبيّن أسباب الخطأ في ذلك؛ وأنا أكتفي هنا في هذا الشأن بالإحالة إليـــه خشية الإطالة[١]، والله الموفق.

وأخيرًا وليس آخرًا فقد اشتد المرض بالشيخ – وقيل في سبب مرضه: إن الكرّامية سمّوه – في هَراة في المحرم سنة ٦٠٦هـــ، وعاش أشهرًا يقاسي فيها آلامه، حتى لقي بارئه يوم الاثنين في الأول من شوال سنة ٦٠٦هـــ.[٢]

١ــ يراجع: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية للدكتور/ محمد صالح الزركان ١١٨ وما بعدها.

٢ــ يراجع: تاريخ الإسلام للإمام الذهبي ٢٢٣/٤٣، وطبقات الشافعية الكبرى ٩٣/٨.

تفسير الفخر الرازي

سوف أتحدث إن شاء الله تعالى في هذا المبحث عن جانبين:

- **الجانب الأول: الشبهات التي أُثيرت حول تفسير الفخر.**
- **الجانب الثاني: منهج الفخر الرازي في تفسيره.**

أولا: (الشبهات التي أثيرت حول تفسير الفخر):

الشبهة الأولى: فيه كل شيء إلا التفسير:

اختلفت آراء الباحثين في الفكر الإسلامي حول الطريقة التي فسّر الفخر بها القرآن الكريم؛ فهناك من تحمّس لها، وهناك من لم ترضه تلك الطريقة؛ فأبو حيان (رحمه الله) يقول: "جمع ابن الخطيب في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة إليها في علم التفسير؛ ولذا حُكي عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال: فيه كل شيء إلا التفسير."[١]

والحق أني عند تعايشي مع تفسير الفخر ثبت لي عدم صحة هذه العبارة التي تناقلتها بعضُ الألسنة من وجوه:

الأول: كتب الفخر تفسيره في السنوات الأخيرة من حياته؛ فأول تاريخ سجّله كان سنة ٥٩٥هـ[٢]، وآخر تاريخ كان سنة ٦٠٣هـ[٣]؛ وأريد أن أصل من ذلك إلى أنه كتب تفسيره بعد أن نضج علمه تمامًا؛ ولذا فإنه حاول أن يجعل تفسيره متضمِّنًا لما توصّل إليه في أبحاثه السابقة، بل لما توصلت إليه العقول قبله؛ ومن هنا جاء تفسيره أشبه بالموسوعة.

١ـ البحر المحيط ٥١١/١.

٢ـ مفاتيح الغيب ١٢٧/٩.

٣ـ المصدر نفسه ٢١٨/٢٧.

الثاني: آمن الفخر بفكرة سيطرت عليه؛ وهي أن طريقة القرآن أسمى من جميع الطرق الكلامية والمذاهب الفلسفية، كما آمن بأن القرآن الكريم هو أصل العلوم كلها. يقول في المفاتيح: "القرآن أصل العلوم كلها؛ فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن، وكذا علم أصول الفقه، وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا، وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق"[١].

ومن هنا فإنه ينبغي أن يلتفت الناس إلى جميع ما حواه من علوم ولطائف وأسرار؛ ليكتمل إيمانهم بالله تعالى، وبأن هذا الكتاب من لدن حكيم خبير.[٢]

ولقد علم الفخر أن فكرته تلك سوف تلقي إنكارًا؛ ولذا فإنه يقول: "وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم؛ وذلك على خلاف المعتاد؛ فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته؛ وتقريره أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور، وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن التأمل في أحوالها جائزًا لما ملأ الله كتابه منها."[٣]

على أن الفخر قد عني أيضًا بالحديث عما في الآيات من فوائد ونكات، وعبر وعظات، وأسباب تنزلات، وإظهار المناسبات بين السور وبين الآيات، واهتم بنقل أقوال المفسرين؛ مما يجعلني أقول: إن التحقيق هو أن يقال: في تفسير الفخر كل شيء مع التفسير.

١ــ مفاتيح الغيب ١٠٧/٢.

٢ــ المصدر نفسه٩٩/١٤.

٣ــ المصدر السابق ٩٩/١٤.

الشبهة الثانية: يورد الشبه نقدا ويحلها نسيئة:

جاء في لسان الميزان عن الفخر ما نصه: "كان يعاب بإيراد الشبه الشديدة ويقصر في حلها؛ حتى قال البعض: يورد الشبه نقدًا ويحلها نسيئة."[١]

ولقد حاول نجم الدين الطوفي[٢] الرد على تلك الشبهة قائلاً: "ولعمري إن هذا دأبه في كتبه الكلامية والحكمية؛ حتى اتهمه بعض الناس؛ ولكنه خلاف ظاهر حاله؛ لأنه كان لو اختار قولاً أو مذهبًا ما كان عنده من يخاف منه حتى يستر عنه؛ ولعل سببه أنه كان يستفرغ قواه في تقرير دليل الخصم؛ فإذا انتهى الى تقرير دليل نفسه، لا يبقى عنده شيء من القوى، ولا شك ان القوى النفسانية تابعه للقوى البدنية."[٣]

والحق أنه رام نفعًا، فضرّ من غير قصد؛ إذ اعتذاره عن الفخر بضعف قواه غير صحيح؛ ويضيف إليه تهمة أخرى!!

والقارئ لتفسير الفخر يجد عكس ذلك تمامًا؛ فقد كان (رحمه الله) يورد أدلة الخصوم، ويتوسع في إيرادها، ثم يجتثها من أصولها؛ وأصدق دليل على ذلك: صنيعه مع المعتزلة؛ حيث كان يعطي لأدلتهم مساحة كبيرة من تفسيره في مواضع متعددة، ثم يجيب عنها دون إهمال لذكر جواب أيٍّ منها، بل إن الفخر يعتذر لمن يورد عليه شبهة التطويل بسبب ذلك قائلاً: "وليس لأحد أن يعيبنا

١ــ لسان الميزان لابن حجر ٤/٤٢٧.

٢ــ هو سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم، نجم الدين الطوفي – نسبة إلى طوف: قرية من أعمال بغــداد– الحنبلي، كان فقيهًا شاعرًا أديبًا، وكان شيعيًّا يتظاهر بذلك، فضُرب ونُفي، فلم يُر منه بعد ذلك ما يشين، لــه: مختصر الروضة في الأصول، ومختصر الترمذي، مات سنة ٧١٠هــ؛ يراجع: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/٢٩٥ – ٢٩٦.

٣ــ لسان الميزان لابن حجر ٤/٤٢٧.

فيقول: إنكم تكررون هذه الوجوه في كل موضع!!! فإنا نقول: إن هؤلاء المعتزلة لهم وجوه متعددة في تأويلات آيات الجزاء؛ فهم يكررونها في كل آية؛ فنحن أيضًا نكرر الجواب عنها في كل آية."[١]

وربما يكون سبب إلصاق هذه التهمة بتفسير الفخر: أن القارئ لبعضه دون كله قد يجد موضعًا لم يردّ فيه الفخر على الخصم بعد أن يورد دليله؛ فيظن أن الفخر لم يردّ عليـــه نهائيًّا؛ لا في هذا الموضع ولا في غيره؛ أما الذي يقرأ تفسير الفخر كله ويتتبعه في قضية من القضايا؛ فإنه يراه في بعض المواضع يكتفي بجواب واحد يراه قاطعًا لكل أدلة الخصم؛ كجوابه على المعتزلة في أفعال العباد.[٢]

والخلاصة أن تلك التهمة التي أُلصقت بتفسير الفخر هي في الحقيقة شاهد لأمانته العلمية في سرد أدلة الخصوم، ولثقافته الواسعة واطلاعه الكبير.

الشبهة الثالثة: الفخر لم يكمل تفسيره:

– ذهب بعض العلماء من المتقدمين والمتأخرين إلى أن الفخر لم يكمل تفسيره؛ ففي وفيات الأعيان في ترجمة الفخر: "له التصانيف المفيدة في فنون عديدة؛ منها تفسير القرآن الكريم؛ جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جدًّا؛ لكنه لم يكمله"[٣]، وفي طبقات الشافعية الكبرى في ترجمة نجم الدين القمولي[٤]: "كان عارفًا بالتفسير، وله تكملة على تفسير الإمام فخر الدين."[١]

١ــ مفاتيح الغيب ١٢٠/١٣.

٢ــ المصدر نفسه ١٣٩/٢.

٣ــ وفيات الأعيان ٢٤٩/٤.

٤ــ هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي بن ياسين القمولي – من قرية قَمُول بصعيد مصر– القاضي الشافعي الفاضل المتعبد الورع؛ ولد سنة ٦٥٣هـــ، وسمع من ابن جماعة، له البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي، وشرح كافية ابن الحاجب،=

ولم يبين هؤلاء الموضع الذي توقف عنده الفخر.

– وفي كشف الظنون وشرح الشفا وكتاب (التفسير والمفسرون)[٢] أن شمس الدين الخُويِّي له تكملة على تفسير الفخـــر أيضًا، وأن الفخر قد وصل في تفسيره إلى سورة الأنبياء.

وقد استند القائلون بأن الفخر لم يكمل تفسيره على ما اشتمل عليه الكتاب في بعض المواضع من إسناد الكلام إلى الفخر إسناد ناقلٍ عنه؛ من ذلك: ما جاء في تفسير سورة الواقعة: "المسألة الأولى أصولية ذكرها الإمام فخر الدين (رحمه الله) في مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها."[٣]

واستندوا أيضًا – حسب رأيهم– إلى أن هناك فرقًا في الأسلوب بين ما قبل تفسير سورة الأنبياء وما بعدها؛ كالتقليل من ذكر أقوال الحكماء ومن ذكر المسائل الفلكية والهندسية بعد تفسير سورة الأنبياء، والإكثار من ذلك قبلها.

– وتشير مصادر أخرى إلى أن الفخر قد أكمل تفسيره: ففي الوافي بالوفيات في ترجمة الفخر: "وأكمل التفسير على المنبر إملاءً"[٤]؛ وهو نصٌّ في غاية الأهمية من وجهة نظري؛ لأنه يساعد في حل جميع الإشكالات.

وفي التفسير ورجاله: "والحق أن الرازي لمّا انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير، تمكّن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي، وبقي شيء

=وغيرها، تُوفي سنة ٧٢٧هـــ؛ يراجع: طبقات الشافعية الكبرى ٣٠/٩، وطبقات المفسرين للداوودي ٢٦٨/١.

١ــ طبقات الشافعية الكبرى ٣١/٩.

٢ــ يراجع: شرح الشفا للخفاجي ٢٦٧/١، ط: القسطنطينية – ١٢٦٧هـــ، وكشف الظنون ١١٩٥/٢، والتفسير والمفسرون للدكتور الذهبي ٢٤٩/١.

٣ــ مفاتيح الغيب ١٣٧/٢٩.

٤ــ الوافي بالوفيات ٢٥٦/٤.

من الأمالي بيد بعض تلاميذه، فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق الفرع بالأصل؛ فالكتاب بروحه هو للرازي كله، وبتحريره هو من وضعه الأول، ووضع تلميذه الخويي في الأخير."[١]

والصحيح عندي – والله الموفق للصواب – هو القول الأخير؛ للآتي:

١– هناك عبارات موجودة في تفسير الفخر في سور يتفق الجميع على أنها من تفسيره؛ هذه العبارات تشعر أن مؤلفًا غير الفخر ألّفها؛ وهذا يدل بقوة على ما في الوافي بالوفيات من أن الفخر قد أكمل تفسيره إملاء؛ وبالتالي فمحل النزاع يُفترض أن يكون في القدر الذي تمكّن الفخر من إخراجه في تحريره النهائي؛ ومن هذه العبارات: في تفسير سورة النساء جاء ما نصه: "ويقول محمد الرازي مصنف هذا الكتاب، ختم الله له بالحسنى."[٢]

فإن قيل: مثل هذه العبارات قالها الرازي نفسه على سبيل هضم النفس والتواضع!!!

قيل: ذلك لا ينافي ما رجّحته من كونه أكمل تفسيره إملاءً على الأقل.

٢– شرع الفخر في تفسيره سنة ٥٩٥هـ، وآخر سنة سجّل الفخرُ فيها تاريخًا هي سنة ٦٠٣هـ – أي قبل وفاته بثلاث سنين– في نهاية تفسيره لسورة الدخان[٣]؛ وهو معروف بالهمة في التدريس والتأليف؛ ولذا فإنه بحسب هذا المعهود منه يُفتَرض أنه أتمه إملاء على الأقل.

٣– القرأة لمفاتيح الغيب من أوله إلى آخره بوجه عام يجدون نسقًا فكريًّا واحدًا، ولا يكادون يلحظون تفاوتًا في المنهج؛ وهذا أيضًا يدل على ما رجحته.

١ـ التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ص ٨٠ وما بعدها،

٢ـ المصدر نفسه ١٠/٥٦.

٣ـ مفاتيح الغيب ٢٧/٢١٨.

وأمّا ما ذُكر من أن الأسلوب قد تغيّر من الاستطراد إلى الاختصار؛ وأن هذا يدل على أن الفخر لم يكمله؛ فلا يُعدّ ذلك دليلاً صحيحًا عندي على أن الفخر لم يكمل تفسيره؛ لأنه من الطبيعي في التأليف أن يستطرد المؤلف أولاً ليحرِّر المصطلحات ويحدِّد المنهج، ثم إنه بعد ذلك يميل إلى الاختصار.

وأما ما ورد من بعض المقاطع القاطعة بأن شخصًا غير الفخر هو الذي كتبها؛ كما جاء في سورة الواقعة: "المسألة الأولى أصولية ذكرها الإمام فخر الدين (رحمه الله) في مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها"[1]؛ فهذا إدراج لبعض الكلام من النُّسَّاخ؛ وهو موجود بكثرة في كتب أئمتنا (رحمهم الله)؛ فليس ببعيد أن يكون الناسخ من تلاميذ الفخر، وقد زاد بعض العبارات بما لا يخرج الكتاب عن روح مؤلفه؛ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(منهج الفخر في مفاتيح الغيب):

ليس للمرء القارئ للطائف ما في التفسير الكبير إلا التعجب من مدى ما رُزق الإمام من توفيق، وحسن تأمُّل، وسعة عقل وعلم، وأهم ملامح منهجه (رحمه الله) في تفسيره ما يلي:

١- **استفاد الفخر من آراء أئمة التفسير قبله**؛ ومجرد قراءة التفسير تكشف عن مدى تلك الاستفادة.

٢- **أبدى الفخر اهتمامًا خاصًّا بتفسير الآيات المتعلقة بالعقيدة**؛ ليس عن رغبة متجردة عن الموضوعية؛ بل انطلاقًا من رؤية متأملة؛ إذ يرى الفخر أن الآيات المتعلقة بعلم العقيدة أكثر عددًا من غيرها؛ ويرى أيضًا أن العمل بجميع الآيات الأخرى يأتي بعد فهم آيات الأصول فهمًا صحيحًا؛ يقول الفخر: "العلم الديني إما أن يكون هو علم الأصول أو ما عداه؛ أما ما عداه فإنه تتوقف

١ــ مفاتيح الغيب ١٣٧/٢٩.

صحته على علم الأصول؛ لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله تعالى؛ وذلك فرع عن وجود الصانع المختار المتكلم، وأما المحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله (ﷺ)؛ وذلك فرع على ثبوت نبوته (ﷺ)، والفقيه إنما يبحث عن أحكام الله؛ وذلك فرع عن التوحيد والنبوة؛ فثبت أن هذه العلوم مفتقرة إلى علم الأصول؛ والظاهر أنه غني عنها؛ فوجب أن يكون أشرف العلوم."[١]

ومن هنا أضحى التفسير عند الفخر معيناً أساسيًّا لتقرير وجهات نظره، ونقض الأفكار المخالفـــة، والرد على استدلال أصحابها بالآيات.

ولقد كان الفخر في جداله مع الفرق الأخرى يتسم بالموضوعية؛ فيعرض رأي خصمه كاملاً وبصورة لو أراد خصمه أن يقرر مثلها لما استطاع، ثم يعيب على خصومه طريقتهم في التـــأويل، ثم يعرض وجهة نظره، ويقررها بالأدلة، ولا يبالي إذا أخذ هذا صفحات كثيرة من تفسيره.

وأكثر الخصوم الذين أطال الفخر معهم في الأخذ والرد كانوا هم المعتزلة، حتى إن القارئ للتفسير الكبير قد يظن في بعض الأوقات أنه أُلِّف خصِّيصًا لعرض آرائهم، والنقد لهم.

٣- **كان من أهداف الفخر في تفسيره بيان جمال النظم القرآني**؛ ولذا فإنه كثيرًا ما كان يبين المناسبات بين كلمات الآية، وبين الآيات في السورة الواحدة، وبين السور وبعضها.

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ سورة النساء: ١، يقول: "اعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف؛ وذلك لأنه تعالى أمر الناس في أول هذه السورة بالتعطُّف على النساء والأيتام، وإيصال حقوقهم إليهم، وبهذا المعنى ختمت السورة.

١ــ مفاتيح الغيب ٢/٨٠.

وقد ذكر في أثناء هذه السورة أنواعًا أخر من التكاليف؛ وهي الأمر بالطهارة والصلاة وقتال المشركين، ولمّا كانت هذه التكاليف شاقّة على النفوس؛ افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب تحمُّل هذه التكاليف الشاقة؛ وهي تقوى الرب الذي خلقنا، والإله الذي أوجدنا.

وقال الفخر أيضًا: إنه تعالى جعل هذا المطلع مطلعًا لسورتين في القرآن؛ إحداهما هذه السورة؛ وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية سورة الحج؛ وهي أيضًا السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن؛ ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ؛ وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة؛ وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال علمه وكمال حكمته وجلاله، وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد؛ وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ سورة الحج: ١، فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد؛ ثم قدّم السورة الدالّة على المبدأ على السورة الدالّة على المعـــاد؛ وتحت هذا البحث أسرار كثيرة.

وقال الفخر: ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بما يكون كالوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾؛ والرقيب: هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك؛ ومَن هذا صفته فانه يجب أن يُخاف، وأن يكون المرء حذرًا فيما يأتي ويترك.

ثم قال الفخر: اعلم أنه تعالى لمّا افتتح السورة بذكر ما يدل على أنه يجب على العبد أن يكون منقادًا لتكاليف الله سبحانه محترزًا عن مساخطه، شرع بعد ذلك في شرح أقسام التكاليف؛ فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ سورة النساء: ٢.[1]

١ــ مفاتيح الغيب ١٢٨/٩ وما بعدها.

٤- **يتعرض الفخر أيضًا في مستهل تفسيره للسور لأسماء السورة**، ويذكر عدد آياتها، ويشير أيضًا إلى السورة النازلة قبلها؛ وإلى بيان مكيتها أو مدنيتها؛ فعند تفسيره لسورة النحل مثلاً يقــول:

"سورة النحل مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية؛ وآياتها ١٢٨؛ ونزلت بعد سورة الكهف."[١]

ويعتمد الفخر في ذلك غالبًا على سابقيه من علماء التفسير، والذين نقلوه عن الصحابة والتابعين (ﷺ)؛ وإنما قلت غالبًا؛ لأنه في موضع من المواضع قد خالف ما ذهب إليه جمع عظيم من المفسرين من مدنية سورة محمد (ﷺ)[٢]؛ فذهب إلى أنها مكية.[٣]

٥- **اهتم الفخر أيضًا في تفسيره بذكر أسباب النزول**؛ وكان (رحمه الله) لا يفسر الآية قبل أن يشرع في ذكر سبب نزولها؛ ولذا تجد أمثال هذه العبارات في تفسيره: "قبل الشروع في التفسير لا بدّ من ذكر سبب النزول"[٤]، "المسألة الأولى: في سبب نزول هذه الآية."[٥]

ولكن الفخر أحياناً ما كان يؤخر ذكر الروايات الواردة في سبب النزول عندما يراها ضعيفة؛ من ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ

١ــ مفاتيح الغيب ١٧٣/١٩.

٢ــ يراجع: معالم التنزيل للإمام البغوي ٢٧٤/٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٠٦/٧، وقد حكى ابن عطيـــــة في المحرر الوجيز ١٠٩/٥ الإجماع على مدنيتها، وفي الكشاف ٣١٨/٤ أنه رُوي عن الضحاك وسعيد بن جبير أنها مكية.

٣ــ مفاتيح الغيب ٣٢/٢٨.

٤ــ المصدر نفسه ٤٠/٥.

٥ــ المصدر السابق ٩٥/٦.

﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأنعام: ١٢٢، ذكر سبب النزول في المسألة الرابعة.[١]

والملاحظ أيضًا فيما يتعلق بذكر الفخر لأسباب النزول: قلة احتفائه بالأسانيد؛ فقد كان غالبًا ما يذكر الراوي الأعلى فقط، وأحيانًا كان يذكر روايات في سبب النزول عارية تمامًا عن الإسناد؛ فعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ سورة النساء: ٩٤، ذكر الروايات التي وردت في سبب نزولها، دون أن يذكر حتى الراوي الأعلى.[٢]

٦- **<u>موقف الفخر من القراءات</u>:** كان الفخر (رحمه الله) يرى أن القراءة المتواترة[٣]حجة بالإجماع؛ فإذا حصلت قراءتان متواترتان، وأمكن الجمع بينهما، وجب ذلك.[٤]

وكان يرى أن الطعن في القراءة المشهورة لا يجوز مطلقًا؛ لأنه لمّا كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن؛ فلو حكمنا ببطلانها، جاز مثله في جميع القرآن؛ وذلك يفضي إلى القدح في التواتر، وإلى القدح في كل القرآن، وهو باطل.

وكان يرى أيضًا أن الصحابة هم الأئمة والقدوة؛ فلو وجدوا في المصحف لحنًا لَمَا فوضوا إصلاحه إلى غيرهم ممن بعدهم؛ مع ترغيبهم في الاتباع؛ فثبت أنه لا بدّ من تصحيح القراءة المشهورة.[٥]

١ــ مفاتيح الغيب ١٤١/١٣.

٢ــ يراجع: مفاتيح الغيب ٣/١١ – ٤.

٣ــ هي القراءة التي اشتملت على شروط الصحة من السند والرسم والعربية؛ يراجع: البرهان في علوم القرآن ٣٣١/١.

٤ــ مفاتيح الغيب ٥٩/٦.

٥ــ المصدر نفسه ٦٥/٢٢.

وكان الفخر يرى أيضًا أن جواز القراءات يتبع النزول لا القياس.[١]

وكان يـــرى أيضًا أن القراءة الشاذة[٢] مردودة؛ لأن كل ما كان قرآنًا وجب أن يثبت بالتواتر؛ فحيث لم يثبت بالتواتر، قطعنا أنه ليس بقرآن.[٣]

٧- **كان الفخر ذا دراية واسعة باللغة**؛ وتفسيره الكبير شاهد على ذلك؛ إذ حفل بالمباحث اللغوية الدقيقة؛ وله في تفسيره مؤاخذات على النحاة؛ من ذلك انتقاده لهم في اتفاقهم على أن كلمة (رُبّ) مختصة بالدخول على الماضي؛ كما يقال: ربما قصدني عليٌّ؛ ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها.[٤]

يقول الفخـــر: "هؤلاء الذين قالوا: إنه لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لو أنهم وجدوا بيتًا مشتملاً على هذا الاستعمال لقالوا: إنه جائز صحيح؛ وكلام الله أقوى وأجلّ وأشرف؛ فلماذا لم يتمسكوا بوروده في قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ سورة الحجر: ٢، على جواز ذلك وصحته؟! ثم إنهم أجابوا عن الآية فقالوا: إن المُترقَّب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه؛ فكأنه قيل: ربما ودوا."[٥]

١ــ مفاتيح الغيب ١٨١/٣٢؛ وهذا يعني أنه (رحمه الله) كان يرى أن المعيار في قبول القراءة هو كونها متواترة.

٢ــ هي كل ما لم يتواتر وإن صح سنده ووافق العربية واحتمله الرسم، وهذا يتناول الآحاد الصحيح والمشهور الذي هو أقل رتبة من المتواتر؛ يراجع: البرهان في علوم القرآن ٣٣٢/١.

٣ــ مفاتيح الغيب ٧٣/٦.

٤ــ يراجع: الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج ٤١٩/١ وما بعدها، ط: مؤسسة الرسالة، ط٣: ١٩٨٨م، وشرح رضي الدين الاستراباذي على الكافية لابن الحاجب ٢٩٥/٤، ط: جامعة قار يونس– ١٣٩٨هـ.

٥ــ مفاتيح الغيب ١٩ /١٢٢.

وهكذا من يطالع التفسير الكبير فإنه يتأكد من سعة علم الفخر باللغة وبلاغتها.

٨- **موقف الفخر من الاسرائيليات:** وكان الفخر في تفسيره معرضًا عن التفاصيل التي لا تفيد؛ فلم يهتم بذكر لون كلب أهل الكهف، ولا اسم الغلام الذي قتله الخضر، ولم يهتم بمعرفة عدد سحرة فرعــون؛ يقول:"اختلفت الروايات في عددهم؛ فمن مقل ومن مكثر؛ وليس في الآيات ما يدل على ذلك."[١]

وأما إذا كانت الإسرائيليات طاعنة في عصمة نبي؛ فإن الفخر كان ينقدها بشدة.[٢]

٩- **اهتم الفخر بالعلوم الفلسفية؛** فاتهمه خصومه بأنه حاد عن السنة؛ وهذا اتهام شائع لكل من اشتغل بهذا الفن، والحق أن اشتغال الفخر بالفلسفة؛ واهتمامه بذكر أقوال الفلاسفة في تفسيره، كان للوصول إلى الحق المتمثل في معرفة كون القرآن الكريم قد اشتمل على فوائد لا تساويها ما يوجد في جميع طرق هؤلاء الفلاسفة.

لقد أراد الفخر أن يبرهن على ذلك على أرض الواقع؛ ولذا فإنه اهتم بذكر كلام الفلاسفة في تفسيره؛ وانتقدهم فيما خالفوا فيه فوائد الكتاب الكريم؛ دون أن يمنعه نقدهم من تصويبهم والاستدلال بأقوالهم في بعض المواضع؛ كقوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ سورة لقمان: ٣٠: "اعلم أن الحكماء قالوا: الله تام وفوق التمام، وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام: ناقص ومكتف وتام وفوق التمام؛ (فالناقص) ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالمريض والأعمى، (والمكتفي)

١ــ يراجع: مفاتيح الغيب ١٤/١٦٦.

٢ــ المصدر نفسه ٢٦/١٦٥ وما بعدها.

وهو الذي أُعطى ما يدفع به حاجته في وقته؛ كالإنسان والحيوان الذي له من الآلات ما يدفع به حاجته في وقتها؛ لكنها تزول، (والتام) ما حصل له كل ما جاز له وإن لم يحتج إليه؛ كالملائكة المقربين؛ لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئًا، (وفوق التمام) هو الذي حصل له ما جاز له من صفات الكمال؛ فهو تام، وحصّل لما عداه ما جاز له أو احتاج إليه؛ فهو فوق التمـــام.

قال الفخر: إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إشارة إلى التمام، وقولـــــه: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي فوق التمام."[1]

١٠- **<u>كان الفخر يقسِّم الآية إلى مقاطع صغيرة أو كلمات مفردة</u>**، ثم يشرع في تفسيرها بطريقة الأبحاث المستقلة، حيث يجعل لكل بحث أو موضوع مسألة مفردة، أو عدة مسائل، ثم يبدأ في التفريع لكل مسألة، وينتقل من موضوع إلى موضوع؛ إذ كان يرى أن فوائد القرآن يمكن أن تؤخذ من كل كلمة فيه؛ وسورة الفاتحة وحدها يمكن أن يُستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة؛ يقول الفخر (رحمه الله): "اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن سورة الفاتحة يمكن أن يُستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحسَّاد وقوم من أهل العناد، وحملوا ذلك على ما ألفوا من أنفسهم من التعلُّقات الفارغة عن المعاني، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب ليصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول."[2]

ولقد أظهر الفخر بالفعل قدرة فائقة على جمع أطراف المسائل، وتقديمها في نسق منظم، مع ربط محكم لكل ما يتصل بالموضوع من موضوعات أخرى.

١ــ مفاتيح الغيب ١٤١/٢٥.

٢ــ المصدر نفسه ١٥/١.

فعند تفسيره لسورة الفاتحة تجده يتحدث عن علومها على سبيل الإجمال، ثم يقرر أنه يمكن استنباط المسائل الكثيرة من الألفاظ اليسيرة، ثم يتحدث عن العلوم المستنبطة من الاستعاذة من مسائل فقهية ومباحث عقلية ولطائف، ثم يتحدث عن البسملة، فيذكر مباحث الاسم، ثم يتحدث الفخر عن أسماء سورة الفاتحة، وعن فضائل هذه السورة، وعن الأسرار العقلية المستنبطة منها، وعن الأسرار الفقهية كذلك، ثم يتحدث عن معاني الكلمات الواردة في هذه السورة، وما يُستنبط من كلٍّ منها.[1]

١١- **كان الفخر حريصًا على تفسير القرآن بالقرآن**؛ فحين قرأت التفسير الكبير وجدت فيه مواضع كثيرة فيها تفسيرٌ للقرآن بالقرآن؛ من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: قول الفخر عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ سورة البقرة: ٣٦: "المستقر قد يكون بمعنى الاستقرار؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ سورة القيامة: ١٢، وقد يكون بمعنى المكان الذي يُستقرّ فيه؛ كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ سورة الفرقان: ٢٤.

إذا عرفت هذا فنقول: الأكثرون حملوا قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ على المكان؛ والمعنى أنها مستقركم حالتي الحياة والموت."[2]

١٢- **موقف الفخر من السنة:** قد اعتمد الفخر على السنة في بيان القرآن؛ وإن الناظر مثلا إلى الأخبار التي ذكرها في فضل الاستعاذة ليتعرف على ذلك[3]، إلا أن الفخر كان يورد في تفسيره أحاديث صحيحة وأخرى قد ضعّفها

١ــ مفاتيح الغيب ١٥/١ وما بعدها.

٢ــ المصدر نفسه ١٨/٣.

٣ــ المصدر السابق ٦٨/١.

الحفَّاظ؛ كذكره لما رُوي عن النبي (ﷺ) أنه قال: "من قال حين يصبح –ثلاث مرات – أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلُّون عليه حتى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة"[١]

ومما أُخذ على الفخر هنا في هذا المضمار: رده لبعض الأحاديث التي في الصحيح؛ من ذلك قوله: "واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي (ﷺ) أنه قال: "ما كذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات"[٢]، فقلت له: الأولى ألا نقبل مثل هذه الأخبار، فقال على طريق الاستنكار: فإن لم نقبله، لزمنا تكذيب الرواة!! فقلت له: يا مسكين، إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم (عليه السلام)، وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة، ولا شك أن صون إبراهيم (عليه السلام) عن الكذب أولى من صون طائفـــة من المجاهيل عن الكذب."[٣]

وقد تأول العلماء هذا الحديث دون تكلُّف ردّه فقالوا: قال إبراهيم (عليه السلام) قولاً يعتقده السامع كذبًا؛ لكنه إذا حُقِّق لم يكن كذبًا؛ لأنه من باب المعاريض

١ــ ذكره الفخر في مفاتيح الغيب ٦٩/١، وقد رواه الإمام الترمذي عن معقل بن يسار ٢٩٢٢، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

٢ــ رواه الإمام البخاري عن بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: واتخذ اللهُ إبراهيم خليلا، حديث رقم ٣١٧٩، ورواه الإمام مسلم، كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخليل عليه السلام، حديث رقم ٦٢٩٤، ونص الحديث فيهما هو ما يلي: قال رسول الله (ﷺ): لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات؛ ثنتين منهما في ذات الله؛ قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة؛ فإنه قدم أرض جبّار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذ الجبار إنْ يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي؛ فإنك أختي في الإسلام؛ فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك."

٣ــ مفاتيح الغيب ٩٦/١٨.

المحتملة للأمرين؛ فليس بكذب محض؛ فقوله: إني سقيم: أي سأُسقم؛ لأن الإنسان عرضة للأسقام، وأراد بذلك الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم، وشهود باطلهم وكفرهم، وقيل: سقيم بما قُدِّر عليّ من الموت، ومعنى قوله: بل فعله كبيرهم: أنه جعل النطق شرطًا لفعل كبيرهم؛ أي فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون، وقوله: هذه أختي: صحيح في باطن الأمر؛ لأنها أخته في الإسلام.

فالمعنى إذن أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع، وأما في نفس الأمر فليست كذبًا مذمومًا؛ بل إنها لو كانت كذبًا لا تورية فيه لكانت جائزة في دفع الظالمين، وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنسانًا مختفيًا ليقتله، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصبًا، وسأل عن ذلك، وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به؛ وهذا كذب جائز؛ بل واجب لكونه في دفع الظالم؛ فنبه النبي (ﷺ) على أن هذه الكذبات ليست داخلة في مطلق الكذب المذموم، وإنما خص اثنتين بأنهما في ذات الله تعالى؛ لكون الثالثة تضمنت نفعًا له وحظًّا مع كونها في ذات الله تعالى.[1]

١٣- **<u>النقل والعقل</u>:** أسلفت أن الفخر كان يفسر القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، وأن تفسيره ممتلئ بأقوال أئمة التفسير ممن سبقوه؛ إلا أني أقول هنا –والله الموفق– إن الفخر قد توسّع أيضًا في الموضوعات العقلية؛ والقارئ لتفسيره يطالع كثيرًا أمثال تلك العبارة: "وهاهنا بحث عقلي"[2]، ويراه مليئًا بالتعليلات والتخريجات العقلية؛ من ذلك تعليله لولادة عيسى (عليه السلام) من غير أب تعليلاً فلسفيًّا؛ حيث قال: "التخيلات الذهنية كثيرًا ما تكون أسبابًا لحدوث الحوادث الكثيرة؛ أليس اللوح الطويل إذا كان موضوعًا على الأرض، قدر

١ــ يراجع: شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم ١٢٣/١٥ وما بعدها، وفتح الباري ٣٩١/٦ وما بعدها.

٢ــ يراجع: مفاتيح الغيب ٥٣/١، ٣٥/٧، ١٨٤/٢٤.

الإنسان على المشي عليه؛ ولو جُعل كالقنطرة، لم يقدر على المشي عليه؛ بل كلما مشى عليه يسقط، وما ذاك إلا أن تصور السقوط يوجب حصول السقوط؛ وقد ذكروا في كتب الفلسفة أمثلة كثيرة لهذا الباب، وجعلوها كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات؛ فما المانع من أن يقال: إنه لمّا تخيلت مريم (عليها السلام) صورة جبريل (عليه السلام)، كفى ذلك في علوق الولد في رحمها.[١]

والمطالع للتفسير الكبير ربما يعثر على بعض النصوص؛ فيظن أن الفخر مال إلى تقديم العقــل على النص مطلقًا؛ كقوله: "لا يمكن ترجيح النقل على العقل؛ لأن العقل أصل النقل؛ والطعن في العقل يوجب الطعن في العقل والنقل معًا."[٢]

وأقول والله الموفق: إنه قال هذا في إطار تأويل الظواهر الموهمة للتشبيه، مبيِّنًا أن العقل السليم لا يتعارض مع النص؛ وأنها إما أن تُؤول، وإما أن نسلِّم العلم بحقيقة معناها لله تعالى.

١٤- **<u>أشعرية الفخر:</u>** أشعرية الفخر لا شكّ فيها؛ فكتبه التي دافع فيها عن المذهب كثيرة؛ كالأربعين وأساس التقديس وغيرهما، والتفسير الكبير ممتلىء بقوله وهو يتحدث عن الأشاعرة: "قال أصحابنا"[٣].

على أن ذلك لم يمنع الفخر – كإمام له استقلالية في التفكير– من مخالفة الأشاعرة في بعض المسائل؛ من ذلك: ذهابه فيما يتعلق بقضية الكلام الإلهي إلى أن منازعة أصحابه للمعتزلة بقولهم: إنه يمتنع أن يكون متكلمًا بكلام قائم بالغير..منازعة ضعيفة؛ لأن هذا أمر ممكن؛ والله تعالى قادر على جميع

١ــ مفاتيح الغيب ٤٢/٨ – ٤٣.

٢ــ المصدر نفسه ٥٢/٢.

٣ــ المصدر السابق ٨٠/١، ٢١١/١، ٢٨/٢، ٣٠/٢، ٩٠/٣، ١٣٣/٣.

الممكنات؛ كما أن الله تعالى يجعل تلك الأصوات معرِّفة لكونه تعالى مريدًا لبعض الأشياء.[1]

وخلاصة القول أن الفخر كان معتزًّا بأشعريته دون تعصب؛ بل كان الحق غايته؛ (رحمه الله).

١٥- **شافعية الفخر:** الأشاعرة غالبًا شافعية المذهب في الفروع؛ وقد كان الفخر فقيهًا شافعيًّا؛ يحبُّ الإمام الشافعي، ويقلِّد مذهبه عن اقتناع، وللفخر كتاب معروف في مناقب الإمام الشافعي.

وأما في التفسير الكبير: فهو يُظهر هذا الحب أيضًا للإمام الشافعي، ويشتدّ في الهجوم على مخالفيه؛ كشدته على الجصّاص[2]في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ سورة النساء: ٣؛ وذلك لأنه خطّأ الإمام الشافعي في قوله: معنى ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾: ذلك أدنى ألا تكثر عيالكم؛ وقال: بل تفسير ذلك: ألا تميلوا ولا تجوروا.

قال الفخر: وأنا أقول: لم يُنقل عن الشافعي رحمة الله عليه أنه طعن في قول المفسرين أن معنى الآية: ألا تجوروا ولا تميلوا، ولكنه ذكر فيه وجهًا آخر؛ والمتقدمون إذا ذكروا وجهًا في تفسير آية، فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها؛ ولولا جواز ذلك وإلا لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في تفسير كلام الله مردودة باطلة؛ ومعلوم أن ذلك باطل؛

١ــ الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي ٢٤٨/١ – ٢٤٩.

٢ــ هو الإمام الكبير الشأن أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي الجصّاص، وُلد سنة ٣٠٥هـــ، وسكن بغداد، وتفقه على أبي الحسن الكرخي، وانتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة في وقته، له: أحكام القرآن، وشرح الأسماء الحسنى، تُوفي سنة ٣٧٠هـــ؛ يراجع: الجواهر المضية في طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء القرشي ٨٤/١ – ٨٥، وتاريخ بغداد ٣١٤/٤.

وأيضًا فمن الذي أخبر الجصاص أن هذا الوجه الذي ذكره الشافعي لم يذكره واحد من الصحابة والتابعين؟! فثبت بهذه الوجوه شدة جهله في هذا الطعن.

والشافعي (ﷺ) جعل كثرة العيال كناية عن الميل والجور؛ لما أن كثرة العيال لا تنفك عن الميل والجور؛ وهذه طريقة مشهورة في كتاب الله؛ والشافعي لمّا كان محيطًا بسبيل الكلام العربي، استحسن ذكر هذا الكلام؛ فأما أبو بكر الرازي فلمّا كان بليد الطبع بعيدًا عن أساليب كلام العرب، لا جرم لم يعرف وجه الحسن فيه."[1]

فانظر كيف اشتدّ الفخرُ في الهجوم على أبي بكر الرازي؛ لطعنه في كلام الإمام الشافعي!!

على أن الفخر (رحمه الله) حينما كان يرى الصواب مع الرأي المخالف للإمام الشافعي، أو يرى ضعف كلام الإمام الشافعي؛ فإنه كان يبيِّن ذلك؛ فعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ سورة التوبة: ٦٠، ذكر قول الإمام الشافعي (رحمه الله)، ثم قال: "قال المصنف الداعي إلى الله (ﷺ) الآية لا دلالة فيها على قول الإمام الشافعي (رحمه الله)."[2]

١٦ – **<u>الفخر والتصوف</u>:** ذكر المؤرخون أن الفخر التقى بشيخ الصوفية نجم الدين الكبرى[3]، وتكلما في علم المعرفة، وتطالعك وأنت تقرأ التفسير

١ــ مفاتيح الغيب ١٤٤/٩ وما بعدها بتصرف.

٢ــ المصدر نفسه ٨٤/١٦ وما بعدها.

٣ــ هو أبو الجناب أحمد بن عمر بن محمد الإمام الزاهد الشهيد الصوفي الخوارزمي، كان صاحب حديث، وكان ملجأً للغرباء، وقد ذهب إليه الفخر وتكلما في علم المعرفة، نزلت التتار على خوارزم سنة ٦١٨هـ، فخرج الشيخ للجهاد، فلقي ربَّه شهيدًا إن شاء الله؛ يراجع: سير أعلام النبلاء ١١٢/٢٢ وما بعدها، وطبقات الشافعية الكبرى ٢٦/٨ – ٢٧.

الكبير عبارة "احتج أصحابنا الصوفية"[1]؛ وكثيرة هي المواضع التي نقل الفخرُ فيها بعض كلام الصوفية في تفسيره؛ من ذلك: أنه نقل عن الجنيد[2]قوله: "سبقت العناية في البداية، فظهرت الولاية في النهاية."[3]

والفخر قد تجاذبته النزعة الكلامية والصوفية في تفسير محبة الله تعالى؛ ثم غلبت النزعة الصوفية؛ يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ سورة الأعراف: ٥٥: "يرى كثير من المتكلمين أن المحبة في حق الله تعالى عبارة عن كونه تعالى مريدًا لإيصال الثواب والخير إلى العبد، ولا يبعد أن تكون محبة الله تعالى للعبد صفة وراء كونه تعالى مريدًا لإيصال الثواب إليـــه؛ وذلك لأنا نجد في الشاهد أن الأب يحب ابنه، فيترتب على تلك المحبة إرادة إيصال الخير إلى ذلك الابن؛ فكانت هذه الإرادة أثرًا من آثار تلك المحبة وفائدة من فوائدها؛ أقصى ما في الباب أن يقال: إن هذه المحبة في الشاهد عبارة عن الشهوة وميل الطبع ورغبة النفس؛ وذلك في حق الله تعالى محال؛ إلا أنا نقول: لم لا يجوز أن يقال: محبة الله تعالى صفة أخرى سوى الشهوة وميل الطبع يترتب عليها إرادة إيصال الخير والثواب إلى العبد؛ أقصى ما في الباب أنا لا نعرف أن تلك المحبة ما هي؟ وكيف هي؟ إلا أن عدم العلم بالشيء لا يوجب العلم بعدم ذلك الشيء؛ ألا ترى

١ــ هو أبو الجناب أحمد بن عمر بن محمد الإمام الزاهد الشهيد الصوفي ٧٢/٢١.

٢ــ هو الجنيد بن محمد بن الجنيد، شيخ الصوفية، تفقه على أبي ثور، وصحب الحارث المحاسبي، وأتقن العلم، ونطق بالحكمة، ولم يُر في زمانه مثله، وكان يقول: علمنا مضبوط بالكتاب، وكان نقش خاتمه: إن كنت تأمله فلا تأمنه، تُوفي سنة ٢٩٧هـــ؛ يراجع: حلية الأولياء ٢٥٥/١٠ وما بعدها، وصفة الصفوة ٤١٦/٢ وما بعدها، وسير أعلام النبلاء ٦٦/١٢ وما بعدها.

٣ــ مفاتيح الغيب ١٩٦/٢٢.

أن أهل السنة يثبتون كونه تعالى مرئيًّا، ثم يقولون: إن تلك الرؤية مخالفة لرؤية الأجسام والألوان؛ بل هي رؤية بلا كيف؛ فلم لا يقولون ههنا أيضًا: إن محبة الله للعبد محبة منزهة عن ميل الطبع وشهوة النفس؟ بل هي محبـــة بلا كيف؛ فثبت أن جزم المتكلمين بأنه لا معنى لمحبة الله إلا إرادة إيصال الثواب ليس لهم عليه دليل قاطع."[١]

وهذا مع أن الفخر قد قال في مثل هذه الألفاظ – المحبة والغضب والحياء – "**واعلم أن القانون الصحيح في هذه الألفاظ أن نقول:** لكل واحد من هذه الأحوال أمور توجد معها في البداية، وآثار تصدر عنها في النهاية؛ مثاله أن الغضب حالة تحصل في القلب عند غليان دم القلب وسخونة المزاج، والأثر الحاصل منها في النهاية إيصال الضرر إلى المغضوب عليه؛ فإذا سمعت الغضب في حق الله تعالى، فاحمله على نهايات الأعراض، لا على بدايات الأعراض، وقس الباقي عليه."[٢]

١ــ مفاتيح الغيب ١٠٧/١٤ – ١٠٨.

٢ــ المصدر نفسه ١٣٠/١.

الفصل الثاني

أسلوب الفنقلة وعناية العلماء به

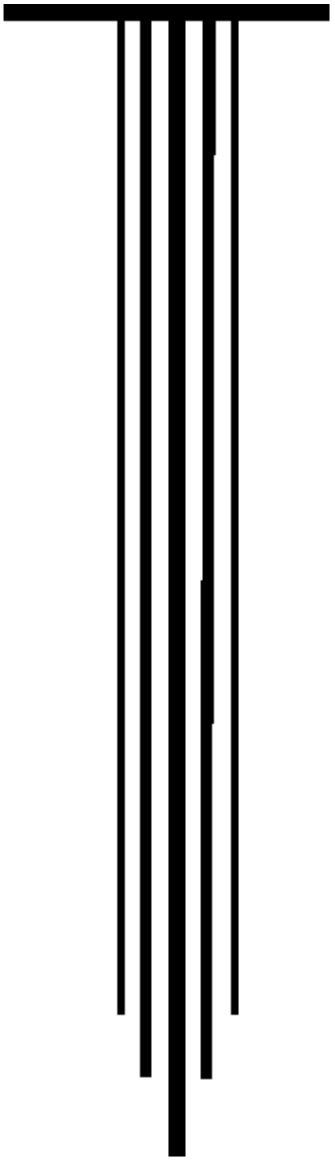

قديمًا كانوا يقولون للرجل إذا كان ضَخْمَ القَدَمَيْن ثَقِيلهَما: فَنْقَلُ القدَمَين.

والفنقلة نحت مُولَّدٌ؛ والنَّحت: هو أن تُؤخذ كلمتان وتُنحت منهما كلمة تكون آخذةً منهما جميعا بحظ، وهو جنس من الاختصار، وهو من قبيل الاشتقاق، وليس اشتقاقا؛ لأن الاشتقاق أن تنزع كلمة من كلمة، والنحت أن تنزع كلمة من كلمتين أو أكثر.

ومن النحت قول الخليل ت ١٧٠هـ:

أقول لَهَا ودمعُ العين جارٍ ** أَلَمْ تَحْزُنْكِ حَيْعَلَةُ المنادي

فقوله: (حَيْعَلَةُ) مكان قوله: حَيَّ علي، ومن ذلك أيضًا: البسملة حِكَايَةُ قَوْلِ: بسم الله، والهَيْلَلَةُ حِكَايَةُ قَوْلِ: لا إلَه إلا الله، والسبحلة حِكَايَةُ قَوْلِ: سبحان الله، والحمدلة حِكَايَةُ قَوْلِ: الحمد لله، والطَّلْبَقَةُ حِكَايَةُ قَوْلِ: أَطَالَ اللهّ بَقَاءَكَ، والدَّمْعَزَةُ حِكَايَةُ قَوْلِ: أَدَامَ الله عِزَكَ، والجَعْلَفَة حِكَايَةُ قَوْلِ: جُعِلْتُ فِدَاءَكَ.

وأما الفنقلات فجمع فنقلة، ويختلف ضبط القاف من كلمة فنقلة باختلاف ما اشتقت منه؛ فهي بكسر القاف إن نُحتت من: فإن قيل، وبضمها إن نُحتت من: فإن قلت، وبفتحها إن نُحتت من: فإن قالوا، أو فإن قال.[1]

والفنقلات: طريقة سلكها كثير من العلماء في بعض القضايا في أسلوب حوار علمي قائم على طرح بعض الاستشكالات بافتراض سؤال ثم الجواب عنه!!!

١ــ يراجع: الجيم لأبي عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني ٥٨/٣، ط: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة– ١٩٧٤م، ت: إبراهيم الأبياري، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأبي الحسين أحمد بن فارس ت: ٣٩٥هـ ٢٠٩/١، الناشر: محمد علي بيضون، ط١: ١٤١٨هـ، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها للإمام السيوطي ٣٧١/١ وما بعدها، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٨هـ، ت: فؤاد منصور، وفنقلات المفسرين. دراسة نظرية وتطبيقية على سورة الفاتحة للدكتورة خلود شاكر– جامعة القصيم مجلة العلوم الشرعية العدد ٣ لسنة ٢٠١٩م.

ولقد عني بها العلماء في مختلف صنوف العلم؛ لأهميتها في التعليم والتأليف؛ حيث تثير انتباه الباحثين وقدراتهم، وتُنشِّط أذهانهم، إذ ما من شك أن تَنوُّع أسلوب الكلام يُنشِّط السامع، ويحفِّز ذهنه لتلقِّيه.

وتَنوُّع الأسلوب منهج قرآني كريم ونبوي شريف؛ فالقرآن الكريم كثيرًا ما كان يقرع الأسماع ببدايات سوره؛ كسورة الحاقَّة، وكالحروف المقطعة في بدايات بعض السور، وكالاستفهام الواقع في عديد من آيات الكتاب الكريم!!!

ورسول الله (ﷺ) أيضًا كان يعتمد أسلوب السؤال والجواب؛ كقوله (ﷺ): "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا."[1]

وكقوله (ﷺ): "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[2]

والفنقلات أيضًا تبرز المسائل الصعبة، وتُسهِّل إيصال المعلومة، وترسِّخها في الذهن؛ وتدفع التوهمَ الظاهرَ والإشكالاتِ المُتخيَّلة!!!

يقول ابن عاشور ت ١٩٧٣م (رحمه الله): "شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال؛ نحو: فإن قلت؛ للاهتمام."[3]

١ــ رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، كتاب الصلاة، باب فضل الصلوات الخمس، رقم ١٢٩.

٢ــ رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي ذر (رضي الله عنه)، كتاب أبواب الجمعة، باب كل معرف صدقة، رقم ٢٢٩٢.

٣ــ التحرير والتنوير لابن عاشور ٦٩٢/١، ط: الدار التونسية للنشر- ١٩٨٤م.

والناظر في تصانيف علمائنا الفاخرة يجد برهنةً واضحةً على كلام ابن عاشور (رحمه الله)؛ حيث كانوا على اختلاف فنونهم يعتمدونها كطريقة مهمة في التعليم ودفع الإشكالات!!!

فالإمام الشافعي ت ٢٠٤هـ (رضي الله عنه) في كتابه الرسالة في عديد من مواضعه يستخدم صيغ الفنقلة؛ خاصة صيغة: (فإن قال قائل)!!!

من ذلك على سبيل المثال قوله: "فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب، لا يخلِطُه فيه غيره؟ فالحجة فيه كتابُ الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ سورة إبراهيم: ٤"[١]

وفي موضع آخر: "فإن قال قائل: اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنصِّ خبر أو دلالةٍ فيه أو إجماعٍ؟ قلت: قال النبي (ﷺ): «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»."[٢]

فلما نَدَب رسولُ الله (ﷺ) إلى استماع مقالته وحفظِها وأدائها امرأً يؤديها، والامْرُءُ واحدٌ؛ دلَّ على أنه لا يأمر أن يُؤدَّى عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أُدِّي إليه؛ لأنه إنما يُؤدَّى عنه حلال وحرام يُجتَنَب، وحدٌّ يُقام، ومالٌ يُؤخذ ويُعطى، ونصيحة في دينٍ ودنيا."[٣]

وفي كتابه الأم يقول (رضي الله عنه)**:** "فإن قال قائل: لم لا يُصلِّي بالتيمم فريضتين ويصلِّي به النوافل قبل الفريضة وبعدها؟!

---

١ ــ الرسالة للإمام الشافعي ٣٤/١، ط: مكتبة الحلبي– مصر، ط١: ١٩٤٠م، ت: الشيخ أحمد شاكر.

٢ــ رواه الإمام الترمذي بسنده عن ابن مسعود (رضي الله عنه)، كتاب أبواب العلم عن رسول الله (ﷺ)، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، حديث رقم ٢٦٥٧، وقال: حسن صحيح.

٣ــ الرسالة للإمام الشافعي ٤٠١/١.

قيل له إن شاء الله تعالى: إن الله (ﷻ) لمَّا أمر القائمَ إلى الصلاة إذا لم يجد الماء أن يتيمم، دل على أنه لا يقال له: لم يجد الماء إلا وقد تقدم قبل طلبه الماءَ والإعواز منه نية في طلبه، وإن الله إنما عني فرض الطلب لمكتوبة، فلم يجز والله تعالى أعلم أن تكون نيته في التيمم لغير مكتوبة ثم يصلي به مكتوبة، وكان عليه في كل مكتوبة ما عليه في الأخرى، فدل على أن التيمم لا يكون له طهارة إلا بأن يطلب الماء فيعوزه، فقلنا: لا يصلى مكتوبتين بتيمم واحد؛ لأن عليه في كل واحدة منهما ما عليه في الأخرى، وأما النوافل فأتباع للفرائض."[1]

ومع تتابع العصور وتنوع العلوم يستخدم العلماء الفنقلات؛ فعبد القاهر ت ٤٧١هـ (ﷺ) في كتابه دلائل الإعجاز يستخدمها؛ من ذلك على سبيل المثال قوله:

"**فإن قيل:** فماذا دعا القدماء إلى أن قَسَّموا الفضيلةَ بينَ المعنى واللّفظ، فقالوا: معنىً لطيفٌ ولفظٌ شريف، وفخَّموا شأنَ اللَّفظِ وعظَّموه حتّى تبعَهُم في ذلك مَن بعدَهم، وحتّى قالَ أهلُ النَّظر: إنّ المعاني لا تتزايَدُ وإنما تتزايدُ الألفاظُ، فأطلقوا كما ترى كلامًا يوهِمُ كلَّ من يسمعُهُ أن المزيّة في حقّ اللفظ؟

قيلَ له: لمّا كانتِ المعاني إنّما تتبينُ بالألفاظ وكانَ لا سبيلَ للمرتِّبِ لها والجامع شَمْلَها إلى أن يُعلِمَك ما صنَع في ترتيبها بفِكره إلاّ بترتيبِ الألفاظ في نُطقهِ.. تَجوَّزوا فكنَّوا عن ترتيبِ المعاني بترتيبِ الألفاظِ، ثم بالألفاظِ بحذفِ الترتيبِ، ثم أَتبعوا ذلك منَ الوصفِ والنَّعتِ ما أبانَ الغَرَض وكشفَ عن المُراد كقولهم: لفظٌ متمكّنٌ، يُريدون أنه بموافقةِ معناهُ لمعنى ما يليهِ كالشَّيءِ الحاصلِ في مكانٍ صالحٍ يطمئنُّ فيه، ولفظٌ قلِقٌ نابٍ، يريدون أنه من أجلِ أنَّ معناهُ غيرُ مُوافقٍ لما يليهِ كالحاصل في مكانٍ لا يصلحُ له فهو لا يستطيعُ الطمأنينةَ فيه،

١ــ الأم للإمام الشافعي ٦٤/١، ط: دار المعرفة- بيروت- ١٩٩٠م.

إلى سائرِ ما يجيءُ في صفةِ اللفظِ مما يعلمُ أنه مُستعارٌ له من معناه، وأنهم نَحلوه إيّاهُ بسببِ مضمونِه ومُؤّداه، هذا ومَن تعلَّق بهذا وشبهِهِ بعدَ الذي مضى منَ الحُجَج فهو رجُلٌ قد أنسَ بالتقليدِ، ومَن كان هذا سبيلَهُ فليسَ له دواءٌ سِوى السكوتِ عنه وتركه وما يختارهُ لنفسِه من سُوءِ النظرِ وقلَّةِ التَّدبُّر."(١)

وقال في موضع آخر: "الناس إنما يكلِّم بعضُهم بعضًا ليعرفَ السامِعُ غرضَ المتكلِّم، فينبغي أن يَنْظُرَ إلى مقصودِ المُخْبِر من خَبرِه، وما هو؟ أهو أن يُعلِم السامعَ وجودَ المُخْبر أم أن يعلمَه إثبات المعنى المخبرَ به للمخبَرِ عنه.

فإنْ قيلَ: إن المقصودَ إعلامُه السامعَ وجودَ المعنى من المخبر عنه، فإذا قال: ضربَ زيدٌ كان مقصودُه أن يُعلمَ السامعَ وجودَ الضرب من زيدٍ، وليس الإثباتُ إلا إعلامَه السامعَ وجودَ المعنى.

قيل له: فالكافرُ إذا أثبتَ مع الله –تعالى عما يقول الظالمون– إلهًا آخر يكونُ قاصدًا أن يعلم –نعوذ بالله تعالى– أن مع الله تعالى إلهًا آخر، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وكفى بهذا فضيحةً!!!"(٢).

وابن حزم ت ٤٥٦هـ (رحمه الله) في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) كذلك يستعمل أسلوب الفنقلة؛ من ذلك قوله:

"**فَإِن قيل:** فَإِنَّكُم تقرُّون بالتوراة والإنجيل وتستشهدون على اليهود والنصارى بما فيها من ذِكْر صفات نبيكم (ﷺ)، وقد استشهد النبي (ﷺ) بنصها في قصة الرجم للزاني الْمُحصَن؟ وفي كتابكم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ سورة المائدة: ٦٨ ؟!!

١ــ دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني ٦٥/١، ط: دار الكتاب العربي– بيروت، ط١: ١٩٩٥م، ت: محمد التنجي.

٢ــ دلائل الإعجاز ٣٨٥/١.

قُلْنَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيق: كل هذا حق، وكله موافق لقولنا فِي التوراة بتبديلهما، وليس شيء منه حجَّة لمن ادّعى أنهما بأيدي اليهود والنصارى كما نزلا على مَا نبين الْآن إِن شاء الله تعالى بالبرهان الواضح."[١]

وفي موضع آخر يقول: "فَإِن قيل: فأنتم مالكون لأموركم مفوَّضٌ إليكم أَعمالكُم مخترعون لأفعالكم؟

قلنا: لا؛ لأن الملك والاختراع ليس لأحد غير الله تعالى؛ إِذْ الكل مما في العلم مُخترَع له ومِلْكٌ له (ﷻ)، ولا غِنى بأحد عن الله (ﷻ) وبه نتأيد."[٢]

وابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ (رحمه الله) يستخدم أيضًا أسلوب الفنقلة في شرحه لصحيح الإمام البخاري ت ٢٥٦هـ (رحمه الله)، من ذلك:

"**فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: ٤٨، يدلُّ على الاختلاف، والذي قبله، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة: ٤٨، يدل على الاتحاد؟!

أُجِيبَ بأن ذلك في أصول الدين، وليس بين الأنبياء فيه اختلاف، وهذا في الفروع، وهو الذي يدخله النسخ."[٣]

وفي موضع آخر في شرحه لحديث "بُني الإسلام على خمس...." يقول:

"**فإن قيل:** لم يَذْكُرِ الإيمان بالأنبياء والملائكة وغير ذلك مما تَضَمَّنَهُ سؤال جبريل (عليه السلام)؟! أُجِيبَ بأن المراد بالشهادة تصديق الرسول (ﷺ) فيما جاء به، فيستلزم جميع ما ذُكِرَ من المعتقدات."[٤]

١ــ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/١٥٧، ط: مكتبة الخانجي.

٢ــ المصدر نفسه ٣/٥٤.

٣ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١/٤٩، ط: دار المعرفة- بيروت.

٤ــ المصدر نفسه ١/٥٠.

والإمام السيوطي ت ٩١١هـ (ﷺ) استخدم في كتابه المُتقَن: (الإتقان في علوم القرآن) أسلوب الفنقلة كثيرا؛ من ذلك:

قوله: "فإن قيل: قد ورد في سورة هود ذِكْر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى (عليهم السلام)، فلم خُصَّت باسم هود وحده مع أن قصة نوح فيها أوعب وأطول؟!

قيل: تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت في غيرها، ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود كتكرره في سورته؛ فإنه تكرر فيها في أربعة مواضع، والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا."[١]

وفي موضع آخر عند حديثه عن البسملة يقول: "فإن قيل: لعلها أُثبتت للفصل بين السور؟! أجيب بأن هذا فيه تغرير، ولا يجوز ارتكابه لمجرد الفصل، ولو كانت له لكُتبت بين براءة والأنفال."[٢]

١ــ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٩٨/١، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٧٤م، ت: محمد أبو الفضل.

٢ــ الإتقان في علوم القرآن ٢٦٨/١.

الفصل الثالث

عناية المفسرين بالفنقلات

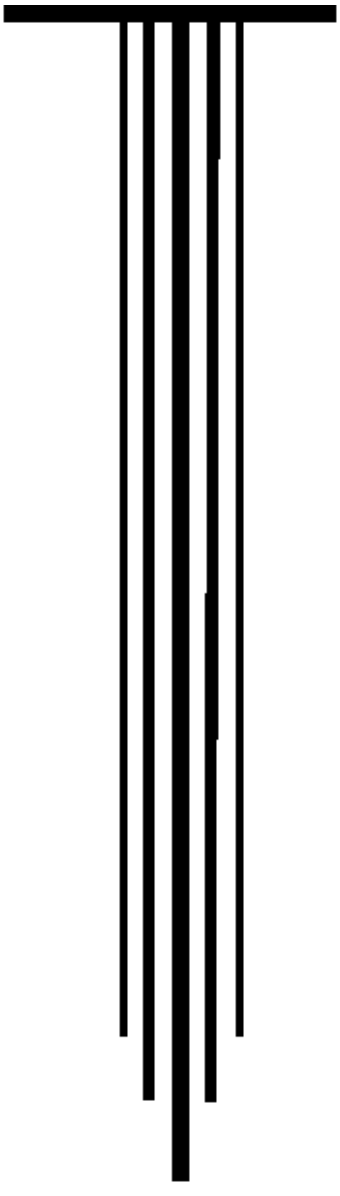

عني المفسرون بأسلوب الفنقلة بغرض توسيع وإثراء المعاني القرآنية، والكشف عن الغوامض ودفع التوهم المتبادَر في تفسير النص القرآني، واستطاعوا بفضل ذلك أن يناقشوا المسائل المختلفة من خلال هذا الأسلوب في سائر فنون العلم في تفسيرهم لكتاب الله الكريم.

لكنهم تفاوتوا في ذلك؛ فمنهم من أكثر في استعمال أسلوب الفنقلة، ووجده سبيلا آمناً ومُذَلَّلًا لبيان النص القرآني وكشف أسراره وجوانب الإعجاز فيه؛ ووقفوا من خلال هذا الأسلوب لمرونته على رُقيِّ القرآن وبلوغه الغاية القصوى من جميع الجوانب!!

ومن المفسرين أيضًا المقل في استعمال هذا الأسلوب!!!

فأما مَن أَكْثَرَ في استعمال أسلوب الفنقلة:

- **فكالإمام الطبري ت ٣١٠هـ** (رحمه الله): حيث إن الناظر في تفسيره يطالع كثيرًا عبارة: (فإن قال قائل:... قيل له:...)، وقد وردت تحديدًا ٣٤٣ مرة؛ وقد ذكرت في المقدمة أن مما طالعته أن هناك بحثًا عن فنقلات الإمام الطبري في تفسيره لمعاني المفردة القرآنية للباحثـــة صفاء عبد اللطيف عبد الحميد، بمجلة البحوث والدراسات الإسلامية التابعة لديوان لمركز البحوث والدراسات الإسلامية بديوان الوقف السني بدولة العراق، العدد ٥٩ لسنة ٢٠٢٠م، لكن الباحثة ذكرت نماذج تطبيقية يسيرة جدًّا، تحديدًا ستة نماذج!!!

ومن الأمثلة التي طالعتها في تفسير الإمام الطبري: قوله: "فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يُسمَّى قرآنًا بمعنى القراءة، وإنما هو مقروء؟ قيل: كما جاز أن يسمّى المكتوب كتابًا، بمعنى: كتاب الكاتب."[1]

١ــ جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٩٧/١، ط: مؤسسة الرسالة– ٢٠٠٠م، ت: الشيخ أحمد شاكر.

وفي موضع آخر في تفسير (اليوم الآخر) يقول (ﷺ): "فإن قال قائل: وكيف لا يكون بعده يوم، ولا انقطاعَ للآخرة ولا فناء، ولا زوال؟

قيل: إن اليومَ عند العرب إنما سُمي يومًا بليلته التي قبله، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يُسمَّ يومًا؛ فيوم القيامة يوم لا ليلَ بعده، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة، فذلك اليوم هو آخر الأيام، ولذلك سمّاه الله جل ثناؤه: اليوم الآخر، ونعتَه بالعَقِيم؛ لأنه لا ليل بعده."(١)

<u>- ومن المكثرين من المفسرين أيضا في استعمال الفنقلة: الإمام السمعاني ت ٤٨٩هـ:</u> فالناظر في تفسيره يطالع كثيرًا عبارة: (فإن قال قائل:... قيل:...)، وقد وردت تحديدًا ٢٣٤ مرة.

من أمثلة ذلك قوله: "فإن قال قائل: أي معنى للاسترشاد، وكل مؤمن مهتد، فما معنى قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ سورة الفاتحة: ٦؟ قلنا: هذا سؤال من يقول بتناهي الألطاف من الله تَعَالَى، ومذهب أهل السنة أن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى، فيكون ذلك بمعنى طلب مزيد الهداية، وَيكون بمعنى سؤال التثبيت، فـ {اهدنا} بِمعْنى ثبتنا، كما يُقال للقائم: قُم حتَّى أَعُود إليك؛ أَي: اثبت قائما."(٢)

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة: ٢، يقول: "فإن قال قائل: لم خصَّ المتقين بِالذكر وَهُوَ هدى لجميع المؤمنين؟ قيل: إنما خصهم بِالذكر تشريفًا، أَو لأَنهم هم المنتفعون بِالْهدى."(٣)

١ـ جامع البيان ١/٢٧١-٢٧٢.

٢ـ تفسير القرآن لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني المروزي الشافعي ١/٣٨، ط: دار الوطن- السعودية- ١٩٩٧م، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس.

٣ـ تفسير القرآن للسمعاني ١/٤٢.

– **والزمخشري ت ٥٣٧هـ** (رحمه الله): هو أكثر المفسرين استعمالًا لهذا الأسلوب؛ فقد تكرّر توظيفه للفنقلة في ألفين وخمسمائة (٢٥٠٠) موضع من تفسيره، ودخل أبوابًا كثيرة وناقش قضايا شتى في اللغة وبلاغتها والفقه وقضايا الاعتزال من خلال هذا الأسلوب!!!

غير أنّه ممّا يلفت الانتباه[١] أن تجد الزمخشريَّ نفسَه يؤصّل لأسلوب الفنقلة من القرآن الكريم، ويحتجّ له بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ سورة البقرة: ١٤٢، فالسؤال المفترض هو: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، والجواب عليه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾

وقد بيّن الزمخشري وجه الاحتجاج بهذه الآية على طريقة الفنقلات بإيراد السؤال الآتي: "فإن قلتَ: أيّ فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلتُ: فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشدّ، والعلم به قبل وقوعه أبعدُ من الاضطراب إذا وقع؛ لِمَا يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطعُ للخصم وأرَدُّ لشغبه، وقبل الرمي يُراش السهم."[٢]

ومن استعماله لأسلوب الفنقلة أيضًا قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ سورة آل عمران: ٨٤، يقول: "فإن قلت: لم عدى ﴿أُنزِلَ﴾ في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفي قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ سورة البقرة: ١٣٦، بحرف الانتهاء؟

١ــ على حد تعبير دكتور عبد العزيز الجودي في مقال منشور له بموقع: تفسير للدراسات القرآنية بعنوان: أسلوب الفنقلة عند الزمخشري وبيان خصائصه وفوائده.

٢ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري ٢٢٤/١، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت، ت: عبد الرزاق المهدي.

قلت: لوجود المعنيين جميعًا؛ لأن الوحي ينزل من فوق، وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر."[١]

- **والقرطبي ت ٦٧١هـ** (ﷺ) أيضًا ممن استخدم أسلوب الفنقلة من المفسرين وأكثر من ذلك؛ حتى إنه استخدمه في مقدمته!!!

وأكثر الصيغ التي استعملها صيغة: (فإن قيل)؛ فقد وردت عنده ٢٠١ مرة!!!

من ذلك قوله في مقدمة تفسيره: "فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهُ جَمْعِ عُثْمَانَ النَّاسَ عَلَى مُصْحَفِهِ وَقَدْ سَبَقَهُ أَبُو بَكْرٍ (ﷺ) عنه إِلَى ذَلِكَ وَفَرَغَ مِنْهُ؟! قِيلَ: إِنَّ عُثْمَانَ (ﷺ) لَمْ يَقْصِدْ بِمَا صَنَعَ جَمْعَ النَّاسِ عَلَى تَأْلِيفِ الْمُصْحَفِ، أَلَّا تَرَى كَيْفَ أَرْسَلَ إِلَى حَفْصَةَ (ﷺ): أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ عُثْمَانُ؛ لِأَنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي الْقِرَاءَاتِ؛ بِسَبَبِ تَفَرُّقِ الصَّحَابَةِ فِي الْبُلْدَانِ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ وَعَظُمَ اخْتِلَافُهُمْ."[٢]

ومن ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ سورة البقرة: ٢٢: "فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ وَصَفَهُمْ بِالْعِلْمِ وَقَدْ نَعَتَهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنَ الْخَتْمِ وَالطَّبْعِ وَالصَّمَمِ وَالْعَمَى؟!

فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدِهِمَا: يُرِيدُ الْعِلْمَ الْخَاصَّ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَنْزَلَ الْمَاءَ وَأَنْبَتَ الرِّزْقَ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُنْعِمُ عَلَيْهِمْ دُونَ الْأَنْدَادِ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَحْدَانِيَّتَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْإِمْكَانِ لَوْ تَدَبَّرْتُمْ وَنَظَرْتُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْأَمْرِ بِاسْتِعْمَالِ حُجَجِ الْعُقُولِ وَإِبْطَالِ التَّقْلِيدِ."[٣]

١ــ الكشاف ٤٠٨/١.

٢ــ الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٥١/١، ط: دار الكتب المصرية، ط٢: ١٩٦٤م، ت: أحمد البردوني وإبراهيم إطفيش.

٣ــ الجامع لأحكام القرآن ٢٣١/١.

– **وممن أكثر من استعمال أسلوب الفنقلة: الإمام الخازن أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد ت ٧٤١هـ** (رحمه الله)؛ وأكثر الصيغ التي استعملها صيغة: (فإن قلت)؛ استعملها نحو ٤٢٦ مرة؛ وأقل الصيغ استعمالا عنده: (فإن قيل)؛ استعملها نحو ٧ مرات فقط، وأيضًا: (فإن قالوا)؛ استعملها ٣ مرات!!!

من ذلك قوله في تفسير سورة الفاتحة: "فإن قلت: قد ذكر الرحمن الرحيم في البسملة فما فائدة تكريره هنا مرة ثانية؟! قلت: ليُعلَم أن العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور، وأن الحاجة إليها أكثر؛ فنبه (سبحانه وتعالى) بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها، وأنه سبحانه هو المتفضل بها على خلقه."[1]

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ سورة البقرة: ١٧، قال:

"**فإن قلت:** ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة؟

قلت: وجه تشبيه الإيمان بالنور: أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القصوى وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة، وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى وإلى جِنانه، وشبه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزداد إلّا حيرة، وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلّا حيرة."[2]

– **وممن استعمل الفنقلة من المفسرين: أبو حيان ت ٧٤٥هـ** (رحمه الله)، فقد وردت صيغة: (فإن قلت) عنده كثيرا؛ نحو ٢٣٥ مرة؛ لكن غالبها نقلاً عن الزمخشري (رحمه الله)، ووردت صيغة (فإن قيل) عنده حوالي ٢٠ مرة، ومعظمها أيضًا ينقلها عمن سبقه من العلماء!!!

١ــ لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن ٢٠/١، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٥هـ، ت: محمد علي شاهين.

٢ــ لباب التأويل في معاني التنزيل ٢٩/١.

من ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة: ٢١، قال: "ولمّا جعل الزمخشري ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ متعلقاً بالخلق قال:

"**فإن قلت:** فهلا قيل: (تعبدون) لأجل ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ أو (اتقوا) لمكان تتقون؛ ليتجاوب طرفا النظم؟! قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزامًا لها وأثبت لها في النفوس، انتهى كلامه."[1]

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سورة البقرة: ٥٤، يقول:

"ذكر الزمخشري في اختصاص ذكر البارىء هنا كلامًا حسناً هذا نصه. فإن قلت: من أين اختص هذا الموضع بذكر البارىء؟ قلت: البارىء هو الذي خلق الخلق بريئًا من التفاوت، ومتميزًا بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطيف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة –ففي أمثال العرب: أبلد من ثور– حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره، انتهى كلامه."[2]

١ــ البحر المحيط لأبي حيان ٢٣٥/١، ط: دار الكتب العلميــة، ط١: ٢٠٠١م، ت: عــادل أحمد وعلي معوض.

٢ــ البحر المحيط ٣٦٦/١– ٣٦٧.

– **والإمام الألوسي أبو الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله ت ١٢٧٠هـ (رحمه الله) ممن استعمل الفنقلة من المفسرين في تفسيره لكتاب الله**، فقد وردت صيغة (فإن قيل) عنده حوالي ٦٢ مرة، ووردت صيغة: (فإن قلت) نحو ٥٦ مرة، ووردت صيغة (فإن قالوا) عنده حوالي ١٩ مرة، ويستخدمها غالبا في الرد على أهل الملل والأهواء والنِّحَل، ووردت صيغة: (فإن قلتم) عنده مرة واحدة، ولم ترد صيغة (فإن قال قائل)!!!

من ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة: ١٥٠، يقول:

"**فإن قيل:** إنه تعالى أنزل عند قرب وفاته (ﷺ) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ سورة المائدة: ٣، فبين أن تمام النعمة إنما حصل ذلك اليوم، فكيف قال قبل ذلك بسنين في هذه الآية: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾؟!

أُجيب بأن تمام النعمة في كل وقت بما يليق به، فتدبر."[١]

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ سورة البقرة: ٢٢١، يقول:

"المعنى أن المذكورين من المشركين والمشركات يدعون إلى النار، أي الكفر المؤدي إليها، إما بالقول أو بالمحبة والمخالطة، فلا تليق مناكحتهم.

١ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي ١٨/٢، ط: دار إحياء التراث العربي.

فإن قيل: كما أن الكفار يدعون المؤمنين إلى النار كذلك المؤمنون يدعونهم إلى الجنة؟!

أجيب بأن المقصود من الآية: أن المؤمن يجب أن يكون حذرًا عما يضره في الآخرة وأن لا يحوم حول حمى ذلك، ويتجنب ما فيه الاحتمال مع أن النفس والشيطان يعاونان على ما يؤدي إلى النار."[1]

- **وفي تفسير المنار إكثار من استعمال الفنقلة**، فقد وردت صيغة (فإن قيل) حوالي ١٣٣ مرة، ووردت صيغة: (فإن قلت) نحو ٣٤ مرة، نقل معظمها عن غيره، ووردت صيغة (فإن قال) عنده نحو ١٣ مرة، وهي نقل عن غيره أيضًا في الغالب، ووردت صيغة (فإن قالوا) عنده نحو ست مرات، ووردت صيغة: (فإن قلتم) عنده مرة واحدة!!!

من ذلك: عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة: ٤٤، تجد ما يلي:

"**فَإِنْ قِيلَ:** إِنَّ مَنْ يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِالْبِرِّ وَيَنْسَى نَفْسَهُ قَدْ يَكُونُ مُتَّكِلًا فِي تَرْكِ الْعَمَلِ عَلَى الشَّفَاعَاتِ وَالْمُكَفِّرَاتِ -كَالْأَذْكَارِ وَالصَّدَقَاتِ- لَا لِعَدَمِ الْيَقِينِ فِي الْإِيمَانِ، وَإِذَا أَمَرَ غَيْرَهُ بِالْبِرِّ مَعَ هَذَا فَذَاكَ؛ لِأَنَّهُ يُلَاحِظُ الْمُكَفِّرَاتِ فِي شَأْنِ نَفْسِهِ وَلَا يُلَاحِظُهَا فِي شَأْنِ غَيْرِهِ؟!

نَقُولُ: إِنَّ الْعَالِمَ بِالدِّينِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ حُكْمَ اللهِ تَعَالَى وَاحِدٌ عَامٌّ، فَكَيْفَ يُحَتِّمُ الْبِرَّ عَلَى غَيْرِهِ وَيُوهِمُهُ أَنَّهُ لَا يُقَرِّبُهُ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ وَيُبْعِدُهُ عَنْ سَخَطِهِ إِلَّا هُوَ، وَيَنْسَى نَفْسَهُ فَلَا يُحَتِّمُ عَلَيْهَا ذَلِكَ؟! ثُمَّ كَيْفَ يَجْهَلُ أَنَّ الشَّفَاعَاتِ وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي وَرَدَ أَنَّهَا تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُثَبِّطَةً عَنْ عَمَلِ الْبِرِّ أَوْ سَبَبًا لِتَرْكِهِ؛ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْمَقْصُودِ مِنَ الدِّينِ؟ فَهَلْ يَكُونُ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ

١ــ روح المعاني ١٢٠/٢.

هَادِمًا لِأُصُولِهِ وَسَائِرِ فُرُوعِهِ؟ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا عَنِ الْعَالِمِ بِالدِّينِ الَّذِي يَتْلُو كِتَابَ اللهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْخِذْلَانِ يَعْرِضُ لِأَرْبَابِ الْأَدْيَانِ عِنْدَ فَسَادِ حَالِ الْأُمَمِ."(١)

وفي موضع آخر تطالع هذا:

"**فَإِنْ قِيلَ:** إِنِ التَّارِيخَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي يَسْهُلُ عَلَى الْبَشَرِ تَدْوِينُهَا وَالِاسْتِغْنَاءُ بِهَا عَنِ الْوَحْيِ، فَلِمَاذَا كَثُرَ سَرْدُ الْأَخْبَارِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ؟

وَالْجَوَابُ: لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ مِنَ التَّارِيخِ مِنْ حَيْثُ هُوَ قَصَصٌ وَأَخْبَارٌ لِلْأُمَمِ أَوِ الْبِلَادِ لِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ الْآيَاتُ وَالْعِبَرُ تَجَلَّتْ فِي سِيَاقِ الْوَقَائِعِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ؛ لِبَيَانِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ، إِنْذَارًا لِلْكَافِرِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ (ﷺ) وَتَثْبِيتًا لِقَلْبِهِ وَقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَلِذَلِكَ لَمْ تُذْكَرْ قِصَّةٌ بِتَرْتِيبِهَا وَتَفَاصِيلِهَا، وَإِنَّمَا ذُكِر مَوْضِعُ الْعِبْرَةِ فِيهَا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ سورة يوسف: ١١١."(٢)

(المقلون في استعمال الفنقلة من المفسرين):

هناك من المفسرين مَن لم يستعمل صيغ الفنقلة إلا قليلاً؛ من هؤلاء:

- **ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي ت ٥٤٢هـ** (رحمه الله)؛ حيث وردت صيغة (فإن قيل) ١١ مرة، ووردت صيغة (فإن قلت) نحو خمس مرات، ووردت صيغة (فإن قال) نحو ثلاث مرات، ووردت صيغة (فإن قالوا) مرة واحدة؛ وأما صيغة (فإن قلتم) فلم ترد في تفسيره!!!

١ــ تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد بن علي رضا القلموني ٢٤٧/١، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ــ تفسير القرآن الحكيم ١٦٦/٢.

ومن ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سورة الأنعام: ١٤٩، يقول: "وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم: إن الهداية والإيمان إنما هي من العبد لا من الله.

فإن قالوا: معنى ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ لاضطركم إلى الهدى.. فسد بذلك معتقدهم أن الإيمان الذي يريده الله من عباده ويثيب عليه ليس الذي يضطر إليه العبد، وإنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده."(١)

- **والإمام البيضاوي ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ت ٦٨٥هـ** (رحمه الله).. ممن لم يستعمل الفنقلة أيضًا إلا قليلا: حيث وردت صيغة (فإن قيل) عنده نحو عشر مرات، وأما بقية الصيغ فلم ترد عنده!!!

من ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ سورة البقرة: ٢٥، يقول:

"**فإن قيل: التشابه:** هو التماثل في الصفة وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة؟!

قلت: التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون المقدار والطعم، وهو كاف في إطلاق التشابه هذا، وإن للآية الكريمة محملاً آخر، وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رُزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيحتمل أن يكون المراد من ﴿الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أنه ثوابه، ومن تشابههما تماثلهما في الشرف والمزية وعلو الطبقة."(٢)

١ــ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣٦٠/٢، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ، ت: عبدالسلام عبدالشافي.

٢ــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ٢٥٠/١، ط: دار الفكر- بيروت.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة البقرة: ٢٨، يقول:

"**فإن قيل:** كيف تُعَدُّ الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟!

قلت: لمَّا كانت وصلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية -كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ سورة العنكبوت: ٦٤- كانت من النعم العظيمة."[١]

- **أيضًا الإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني ت ١٢٥٠هـ** كان من المقلين في استعمال أسلوب الفنقلة في تفسيره: فقد وردت صيغة (فإن قيل) عنده نحو ١٣ مرة، ووردت صيغة (فإن قلت) نحو إحدى عشرة مرة، ووردت صيغة (فإن قال) مرة واحدة، وأما صيغة (فإن قلتم) وصيغة (فإن قالوا) فلم ترد عنده!!!

من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة البقرة: ٤٧: "فإن قيل: إن التعريف في ﴿الْعَالَمِينَ﴾ يدل على شموله لكل عالم؟!

قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزمًا لكونهم أفضل من أمة محمد (ﷺ)؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ سورة آل عمران: ١١٠؛ فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات."[٢]

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة هود: ٤٥، يقول:

١ــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٧٠/١.

٢ــ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني ٩٧/١، ط: دار ابن كثير– دمشق.

"**فإن قيل:** كيف طلب نوح (عليه السلام) ذلك وترك ما يفيده الاستثناء، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ سورة هود: ٤٠؟!

فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول؛ فإنه كان يظنه من المؤمنين."[١]

- **والطاهر ابن عاشور ت ١٣٩٣هـ** (رحمه الله) ممن لم يستعمل الفنقلة أيضًا إلا قليلا: فقد وردت صيغة (فإن قلت) عنده ٦٢ مرة، ووردت صيغة (فإن قيل) خمس مرات فقط، وأما صيغة (فإن قالوا) وصيغة (فإن قال) وصيغة (فإن قلتم) فمرة واحدة!!!

من ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة الفاتحة: ٢، يقول:

"**فإن قلت:** إن الربوبية تقتضي الرحمة؛ لأنها إبلاغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، وذلك يجمع النعم كلها، فلماذا احتيج إلى ذكر كونه رحمانا؟!

قلت: لأن الرحمة تتضمن أن ذلك الإبلاغ إلى الكمال لم يكن على وجه الإعنات، بل كان برعاية ما يناسب كل نوع وفرد، ويلائم طوقه واستعداده، فكانت الربوبية نعمة، والنعمة قد تحصل بضرب من الشدة والأذى، فأتبع ذلك بوصفه بالرحمان تنبيهًا على أن تلك النعم الجليلة وصلت إلينا بطريق الرفق واليسر ونفي الحرج، حتى في أحكام التكاليف والمناهي والزواجر فإنها مرفوقة باليسر بقدر ما لا يبطل المقصود منها، فمعظم تدبيره تعالى بنا هو رحمات ظاهرة."[٢]

١ــ فتح القدير ٢/٥٧٠.

٢ــ التحرير والتنوير ١/١٧٣.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ سورة البقرة: ٥٥، يقول:

"**فإن قلت:** إذا كان السائلون صالحين فكيف عوقبوا؟!

قلت: قد علمت أن هذا عقاب دنيوي، وهو ينال الصالحين، ويُسمَّى عند الصوفية بالعتاب، وهو لا ينافي الكرامة."(١)

– ومن المفسرين مَن لم يستعمل أسلوب الفنقلة أصلا؛ كأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ت ٩٨٢هـ (رحمه الله)؛ حيث تتبعت صيغ الفنقلة، فلم أجدها عنده ولو مرة واحدة!!!

– **وأود أن أبين في ختام هذا المبحث أن الفخر الرازي (رحمه الله) كان ممن يستعمل أسلوب الفنقلة كثيرا**، وأكثر الصيغ استعمالاً عنده: (فإن قيل)؛ حيث جاءت نحو ١٥٠٧ مرة، تليها صيغة: (فإن قالوا)؛ حيث وردت ١٧١ مرة، وأما صيغة: (فإن قلت) فقد وردت عنده نحو ٦١ مرة، ولذا أردت أن أظهر هذا الأسلوب عنده؛ لأهمية تفسير الفخر وثرائه العلمي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ التحرير والتنوير ١/٥٠٨.

الفصل الرابع

مجالات استخدام أسلوب الفنقلة عند الإمام الرازي في تفسير سورة البقرة، وفيه مباحث:

الأول: بيان معنى النص القرآني الكريم.
الثاني: تجلية وجوه الإعجاز البلاغي.
الثالث: تعليل الأحكام القرآنية وبيان حكمها.
الرابع: دفع الشبه وتوهم غير المراد.
الخامس: الحجاج والفنقلة.

المبحث الأول

(بيان معنى النص القرآني الكريم)

استخدم الفخر (رحمه الله) أسلوب الفنقلة في بيان معنى النص الكريم، وإبراز المراد منه، وإيصال هذا المعنى للقارئ بأقرب صورة ممكنة!!!

والمطالع لتفسيره الكبير يجد ذلك واضحًا جليًّا، فمن ذلك:

استخدام الفنقلة في بيان معنى الريب:

١- فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ سورة البقرة: ٢، يبين معنى الريب للقارئ عن طريق استعمال أسلوب الفنقلة، فيقول:

"**الريب قريب من الشك وفيه زيادة؛ كأنه ظن سوء، تقول:** رابني أمر فلان: إذا ظننت به سوءًا، ومنه: قوله (ﷺ): "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"[١].

فإن قيل: قد يستعمل الريب في قولهم: ريب الدهر: أي حوادثه، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ سورة الطور: ٣٠، ويستعمل أيضًا في معنى ما يختلج في القلب من أسباب الغيظ؛ كقول الشاعر[٢]:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ** وَخَيْبَرَ ثُمَّ أغمدنا السُّيُوفَا

١ــ رواه الإمام الترمذي بسنده عن الحسن بن علي (رضي الله عنهما)، رقم ٢٥١٨، وقال: صحيح، انظر: سنن الإمام الترمذي، ط: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- ١٩٧٥م، ت: أحمد محمد شاكر.

٢ــ هو كعب بن مالك الصحابي الخزرجي، ومن الثلاثة الذين خُلِّفوا، توفي سنة ٥٠هـ (رضي الله عنه)، وعجز البيت فيه: أجْمَنا بدل أغمدنا، والبيت من الوافر، يراجع: الثقات لأبي حاتم بن حبان ٣٥٠/٣، ط: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند- ١٩٧٣م، وطبقات فحول الشعراء لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي ت ٢٣٢هـ ٢٢١/١، ط: دار المدني- جدة، ت: محمود محمد شاكر.

قلنا: هذان قد يرجعان إلى معنى الشك؛ لأن ما يُخاف من ريب المنون مُحتمَل، فهو كالمشكوك فيه، وكذلك ما اختلج بالقلب فهو غير مُتيقَّن؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلَارَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ المراد منه نفي كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه، والمقصود أنه لا شبهة في صحته ولا في كونه من عند الله ولا في كونه معجزًا."[1]

بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾:

٢- وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٣، يوضح الفخر معنى الشهداء هنا في الآية عن طريق استخدام صيغة الفنقلة أيضًا، فيقول:

"**فإن قيل:** هل يمكن حمل لفظ ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ على معنى: وادعوا أوثانكم وأكابركم ورؤساءكم ليعينوكم على المعارضة وليحكموا لكم وعليكم؟!

قلنا: ممكن؛ لأن الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة، فيمكن جعله مجازًا عن المعين والناصر، وأوثانهم وأكابرهم مشتركة في أنهم كانوا يعتقدون فيهم كونهم أنصارًا لهم وأعوانًا.

ثم يبين الفخر (رحمه الله) أن الأولى حمل لفظ ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ على الأكابر دون الأوثان، وذلك لأن لفظ الشهداء لا يطلق ظاهرًا إلا على من يصح أن يشاهد ويشهد، فيتحمل بالمشاهدة ويؤدي الشهادة، وذلك لا يتحقق إلا في حق رؤسائهم، أما إذا حملناه على الأوثان لزم المجاز في إطلاق لفظ الشهداء على الأوثان، وهو خلاف الأصل، أو يقال: المراد وادعوا من تزعمون أنهم شهداؤكم، والإضمار خلاف الأصل أيضًا.[2]

١ــ مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢/٢٦٥، ط: دار إحياء التراث العربي، ط٣: ١٤٢٠هـ.

٢ــ مفاتيح الغيب ٢/٣٥٠.

وممن ذهب إلى أن المراد بالشهداء: الأوثان: السُّدِّي ت ١٢٧هـ، والقول بأن المراد بهم الأعوان مروي عن ابن عباس ت ٦٨هـ (رضي الله عنهما)[١]، وهو الصحيح، والله أعلم بمراده.

بيان المخاطبين بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

٣- ويبين الفخر أيضًا عن طريق استخدام أسلوب الفنقلة المخاطبين بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ سورة البقرة: ٣٦؛ فيقول: "المخاطبين بهذا الخطاب آدم وحواء (عليهما السلام) وإبليس داخل فيه أيضًا، وهو قول الأكثرين؛ لأن إبليس قد جرى ذكره هنا.

فإن قيل: إن إبليس لمَّا أبى من السجود صار كافرًا، وأُخرج من الجنة، وقيل له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ سورة الأعراف: ١٣، وإنما أُهبط منها لأجل تكبره، فزلة آدم (عليه السلام) إنما وقعت بعد ذلك بمدة طويلة، ثم أُمر بالهبوط بسبب الزلة، فلما حصل هبوط إبليس قبل ذلك كيف يكون قوله هنا ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ متناولاً له؟!

قلنا: إن الله تعالى لمَّا أهبطه إلى الأرض فلعله عاد إلى السماء مر أخرى لأجل أن يوسوس إلى آدم وحواء، فحين كان آدم وحواء في الجنة قال الله تعالى لهما: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ سورة طه: ١٢٣، فلما خرجا من الجنة واجتمع إبليس معهما خارج الجنة أمر الكل فقال: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾.

ومن العلماء من يرى أن المراد: آدم وحواء وذريتهما؛ لأنهما لمَّا كانا أصل الإنس جُعلا كأنهما الإنس كلهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة: ٣٨، وهذا حكم

١ــ زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/٥٠، ط: المكتب الإسلامي- بيروت، ط٣: ١٤٠٤هـ.

يعم الناس كلهم، ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغض وتضليل بعضهم لبعض.

ويرى الفخر أنه قول ضعيف؛ لأن الذرية ما كانوا موجودين في ذلك الوقت، فكيف يتناولهم الخطاب؟ ثم قال: أما من زعم أن أقل الجمع اثنان فالسؤال زائل على قوله.(١)

بيان سبب قتل فرعون للذكور من أبناء بني إسرائيل:

٤- ويستعين الفخرُ بأسلوب الفنقلة في بيان سبب قتل فرعون للذكور من أبناء بني إسرائيل عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ سورة البقرة: ٤٩، ويذكر روايةً عن ابن عباس (رضي الله عنهما)(٢) خلاصتها أنه وقع إلى فرعون وطبقته ما كان الله وعد إبراهيم (عليه السلام) أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فخافوا ذلك واتفقت كلمتهم على إعداد رجال معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه، فلما رأوا كبارهم يموتون وصغارهم يُذبحون خافوا الفناء، فحينئذ لا يجدون من يباشر الأعمال الشاقة، فصاروا يقتلون عامًا دون عام.

قال الفخر: فإن قيل: إن فرعون كان كافرًا بالله، فكان بأن يكون كافرًا بالرسل أولى، وإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يقدم على هذا الأمر العظيم بسبب إخبار إبراهيم (عليه السلام) عنه؟!

قلنا: لعل فرعون كان عارفًا بالله وبصدق الأنبياء إلا أنه كان كافرًا كفر الجحود والعناد، أو يقال: إنه كان شاكًّا متحيرًا في دينه، وكان يجوِّز صدق إبراهيم (عليه السلام)، فأقدم على ذلك الفعل احتياطًا.(٣)

١ــ مفاتيح الغيب ٤٦٣/٣.

٢ــ يراجع: جامع البيان ٤٢/٢، ط: مؤسسة الرسالة.

٣ــ مفاتيح الغيب ٥٠٧/٣.

وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون في سبب قتل فرعون لذكور أبناء بني إسرائيل؛ منها: قول السُّدِّي ت ١٢٧هـ: إن فرعون رأى نارًا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فدعا فرعون الكهنة وسألهم عن ذلك فقالوا: يخرج من بيت المقدس مَن يكون هلاك القبط على يده، ومنها: أن المنجمين أخبروا فرعون بذلك وعينوا له السنة، فلهذا كان يقتل أبناءهم في تلك السنة.(١)

والأقرب أن يقال: إن فرعون تأكد بما لا يدع مجالا للشك مِن خروج مَن يكون هلاكه على يده؛ سواء عن طريق إخبار إبراهيم (عليه السلام) عنه، أو عن طريق الكهنة الذين زينوا له، أو رؤيا أفزعته، أو حديث مَن يسامرهم عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة، ولعل الأدلة تضافرت جميعا على ذلك عنده؛ لأنه يبعد مِن حال مَن كان عنده مسحةٌ عقل أن يقدم على مثل هذا الأمر الخطير إلا بعد تضافر الأدلة عليه، ولم يردَّ اجتهادُهُم من قضاء الله (عز وجل) شيئًا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بيان معنى الذكر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

٥- ويبين الفخرُ أيضًا معنى الذكر مستخدمًا أسلوب الفنقلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة: ٦٣، حيث قال: أي احفظوا ما في التوراة وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه.

فإن قيل: هلا حملتموه على نفس الذكر؟! قلنا: لأن الذكر الذي هو ضد النسيان من فعل الله تعالى فكيف يجوز الأمر به؟! فأما إذا حملناه على المدارسة فلا إشكال.(٢)

١ــ يراجع: جامع البيان ٢/٤٣-٤٤.

٢ــ مفاتيح الغيب ٣/٥٣٩.

وما ذهب إليه الفخر في معنى الذكر هنا هو قول جمهور المفسرين.[1]

بيان المعنيِّين بقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾:

٦- **وبيّن الفخرُ الفريق الذين عناهم الله تعالى بقوله:** ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: ٧٥، فقال: المراد بالفريق مَن كان في زمن محمد (ﷺ)؛ لأن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ راجع إلى ما تقدم، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، والذين تعلق الطمع بإيمانهم هم الذين كانوا في زمن محمد (ﷺ).

ثم استبعد الفخرُ مستخدمًا أسلوب الفنقلة قول من قال: المراد بالفريق: من كان في أيام موسى (عليه السلام)، فقال (رحمه الله):

فإن قيل: الذين سمعوا كلام الله هم الذين حضروا الميقات؟!

قلنا: لا نسلم، بل قد يجوز فيمن سمع التوراة أن يقال: إنه سمع كلام الله، كما يقال لأحدنا: سمع كلام الله إذا قُرِيء عليه القرآن.[2]

وللإمام الطبري (رحمه الله) كلام لطيف رائق في معنى الآية؛ حيث قال:

"إنما عني بذلك مَن سمع كلامه من بني إسرائيل، ثم حرَّف ذلك وبدَّل من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه؛ وذلك أن الله جل ثناؤه إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله (عز وجل)؛ استعظامًا من الله لما كانوا يأتون من البهتان بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإيذانًا منه تعالى ذكره عبادَه المؤمنين قطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمد (ﷺ) من

١ــ يراجع: معالم التنزيل ١٠٤/١، والكشاف ١٤٧/١، والمحرر الوجيز ١٥٩/١، وتفسير القرآن العظيم ٢٨٨/١، وإرشاد العقل السليم ١٠٩/١، ط: دار إحياء التراث العربي.

٢ــ مفاتيح الغيب ٥٦٠/٣.

الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم وإنما تخبرونهم بالذي تخبرونهم من الأنباء عن الله (ﷻ) عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه وأمره ونهيه ثم يبدله ويحرفه ويجحده؟! فهؤلاء الذين بين ظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق وهم لا يسمعونه من الله وإنما يسمعونه منكم!!!"[1].

وخلاصة المعنى الذي ذهب إليه أنه إنْ كفر هؤلاء وحرّفوا فلهم سابقة في ذلك؛ فالآية على هذا ذم لهم ولأسلافهم في الكفر والنفاق، وكلامه (رحمه الله) من الوجاهة بمحل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بيان أن التكسُّب بالدين من أي طريق في غاية الرداءة:

٧- واستعان الفخر بالفنقلة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ سورة البقرة: ٧٩؛ ليبين أن التكسُّب بالدين من أي طريق في غاية الرداءة، ووعيده شديد؛ فقال:

"**فإن قيل:** إنه تعالى حكى عنهم أمرين: **أحدهما:** كتابة الكتاب، **والآخر:** إسناده إلى الله تعالى على سبيل الكذب، فهذا الوعيد مرتَّب على الكتابة أو على إسناد المكتوب إلى الله أو عليهما؟

قلنا: لا شك أن كتابة الأشياء الباطلة لقصد الإضلال من المنكرات، والكذب على الله تعالى أيضًا كذلك، والجمع بينهما منكر عظيم جدًّا."[2]

والقول ما قال؛ إذ هؤلاء قد ضلوا عن الدين، وأضلوا غيرهم، وباعوا آخرتهم بدنياهم، فعظم ذنبهم، والعاقل لا يرضى بالوزر القليل في الآخرة لأجل

١ــ جامع البيان ٣٤٧/٢ وما بعدها.

٢ــ مفاتيح الغيب ٥٦٥/٣.

الأجر العظيم في الدنيا، فكيف يليق به أن يرضى بالعقاب العظيم في الآخرة لأجل النفع الحقير في الدنيا!!!

خطاب اليهود وأسلافهم:

٨- وعن طريق الفنقلة أيضًا يوضح الفخرُ (رحمه الله) معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ سورة البقرة: ٩١، قائلاً:

"**فإن قيل: قوله:** ﴿ءَامِنُوا۟﴾ خطاب لهؤلاء الموجودين، وقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ حكاية فعل أسلافهم فكيف ذلك؟

قلنا: معناه أنكم بهذا التكذيب خرجتم من الإيمان بما آمنتم كما خرج أسلافكم بقتل بعض الأنبياء عن الإيمان بالباقين."[١]

وتخريجُ الفخر كما ترى تخريجٌ حسن؛ فالله تعالى خاطب الذين أدركوا رسولَ الله (ﷺ) من يهود بني إسرائيل بما سلف من إحسانه إلى أسلافهم، وبما سلف من كفران أسلافهم نعمه، وارتكابهم معاصيه، واجترائهم عليه وعلى أنبيائه، وأضاف ذلك إلى المخاطبين به، نظير قول العرب بعضها لبعض: فعلنا بكم يوم كذا كذا وكذا، وفعلتم بنا يوم كذا كذا وكذا، يعنون بذلك أن أسلافنا فعلوا ذلك بأسلافكم، وأن أوائلنا فعلوا ذلك بأوائلكم، فكذلك ذلك هنا، وفائدة سوق الماضي في موضع المستقبل، الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد وقع، وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر. ألا

١ــ مفاتيح الغيب ٣/٦٠٣.

ترى أن حاضري محمد (ﷺ) لما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء[١]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بيان سبب وصف الآيات بأنها بينات:

٩- وبيَّن الفخرُ عن طريق الفنقلة السببَ في وصف الآيات بأنها بينات مع أن الآية لا تكون إلا بينة، وذلك من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ سورة البقرة: ٩٩، فيقول:

"**فإن قيل:** الدليل لا يكون إلا بيِّنًا، فما معنى وصف الآيات بكونها بينة؟!

قلنا: العلوم تنقسم إلى ما يكون طريق تحصيله والدليل الدال عليه أكثر مقدمات فيكون الوصول إليه أصعب، وإلى ما يكون أقل مقدمات فيكون الوصول إليه أقرب، وهذا هو الآية البينة."[٢]

ويمكن أن يكون المراد بكونها بينات: أي مُفَصَّلَاتٍ بالحلال والحرام والحدود والأحكام، أو هي دلائل واضحة لا تقصُر عن إقناعهم بأحقيتها، ولكنهم يظهرون أنفسهم أنهم لم يوقنوا بحقيتها.[٣]

وأما تسمية القرآن بالآيات ففيه وجوه: أحدها: أن الآية هي الدالة، وإذا كانت أبعاض القرآن كانت آيات، **وثانيها:** أن منها ما يدل على الإخبار عن الغيوب، فهي دالة على تلك الغيوب، وثالثها: أنها دالة على دلائل التوحيد والنبوة والشرائع، فهي آيات من هذه الجهة[٤]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ جامع البيان ٣٥٠/٣ وما بعدها بتصرف، والمحرر الوجيز ١٧٩/١، ط: دار الكتب العلمية.

٢ــ مفاتيح الغيب ٦١٤/٣.

٣ــ يراجع: معالم التنزيل ١٢٦/١، والتحرير والتنوير ٦٢٤/١.

٤ــ مفاتيح الغيب ٦١٤/٣.

لفظ السحر في اللغة وفي عرف الشرع:

١٠- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ سورة البقرة: ١٠٢، يستخدم أسلوب الفنقلة لبيان أن لفظ السحر في عُرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويُتخيَّل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أُطلق ولم يُقيَّد أفاد ذم فاعله، إلا أنه قد يُستعمل مُقيَّدًا فيما يُمدح ويُحمد، ومنه قوله (ﷺ): "إن من البيان لسحرًا"[١]؛ يقول الفخر (رحمه الله):

"**فإن قيل:** كيف يجوز أن يسمى ما يوضِّح الحقَّ وينبيء عنه سحرًا، وهذا القائل إنما قصد إظهار الخفى لا إخفاء الظاهر، ولفظ السحر إنما يفيد إخفاء الظاهر؟!

قلنا: إنما سمَّاه سحرًا لوجهين: **الأول:** أن ذلك القدر للطفه وحسنه استمال القلوب، فأشبه السحر الذي يستميل القلوب، فمن هذا الوجه سُمِّي سحرًا، لا من الوجه الذي ظننت، **الثاني:** أن المقتدر على البيان يكون قادرًا على تحسين ما يكون قبيحًا وتقبيح ما يكون حسنًا، فذلك يشبه السحر من هذا الوجه."[٢]

ويعني الفخرُ (رحمه الله) أن المعنى الذي قد تُصوِّر من السحر في الحديث دقة الفعل من تحسين الكلام وتحبير الألفاظ، وبذا أشبه البيانُ السحرَ.

ويرى العلماء[٣] أنه يجوز حمل الحديث على المدح أو الذم؛ فَإِن أُريد به المدح فالمعنى أنه يُستمال به القلوب ويُرضى به الساخط، وإن أريد به الذم

١ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، كتاب النكاح، باب الخطبة، حديث رقم ٤٨٥١.

٢ــ مفاتيح الغيب ٦١٩/٣.

٣ــ يراجع: أحكام القرآن للجصاص ٥٠/١، ط: دار الكتب العلمية، وفتح الباري ٢٣٧/١٠-٢٣٨.

فالمراد به الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق، فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق، فالحديث ليس ذما للبيان كله ولا مدحا؛ لقوله: (من البيان)؛ فأتى بلفظة (من) التي للتبعيض، وكيف يُذم البيان وقد امتن الله به على عباده حيث قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ سورة الرحمن: ٣-٤، وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدح الإطناب في مقام الخطابة بحسب المقام، نعم الإفراط في كل شيء مذموم، وخير الأمور أوسطها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾

١١- وبيّن الفخرُ بالفنقلة أيضًا أنه لا يبعد أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ سورة البقرة: ١٠٤، أنه مِن نظره أي أَنْظَرَهُ، وأن الله تعالى أمر المؤمنين بأن يسألوا رسولَ الله (ﷺ) الإمهالَ لينقلوا عنه؛ يقول الفخر:

"**فإن قيل:** أفكان النبي (ﷺ) يعجل عليهم حتى يقولوا هذا؟!

فالجواب من وجهين: أحدهما: أن هذه اللفظة قد تقال في خلال الكلام وإن لم تكن هناك عجلة تُحوج إلى ذلك؛ كقول الرجل في خلال حديثه: اسمع أو سمعت، **الثاني:** أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ سورة القيامة: ١٦، أنه (ﷺ) كان يعجل قول ما يلقيه إليه جبريل (عليه السلام)؛ حرصًا على تحصيل الوحي وأخذ القرآن، فقيل له ذلك، فلا يبعد أن يعجل فيما يحدث به أصحابه من أمر الدين حرصًا على تعجيل أفهامهم، فكانوا يسألونه في هذه الحالة أن يمهلهم فيما يخاطبهم به إلى أن يفهموا كل ذلك الكلام."[1]

١ــ مفاتيح الغيب ٦٣٥/٣.

وقراءة الأعمش[١] (أَنْظِرنا) بقطع الهمزة وكسر الظاء[٢] تشهد للمعنى الأول.

ويجوز أن يكون ﴿ٱنظُرْنَا﴾ معناه: انظر إلينا، إلا أنه حذف حرف (إلى) -من باب التوسع- كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ سورة الأعراف: ١٥٥، والمعنى: من قومه، والمقصود منه أن المعلم إذا نظر إلى المتعلم كان إيراده للكلام على نعت الإفهام والتعريف أظهر وأقوى.

ويجوز أن يكون مِن نظر البصيرة، والمراد به التفكر والتدبر فيما يصلح حال المنظور في أمره، والمعنى تفكر في أمرنا، فهو مجاز عن تدبير المصالح[٣]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التعنت في سؤالات أهل الكتاب لرسول الله (ﷺ):

١٢- واستعمل الفخرُ أسلوب الفنقلة لبيان أن أهل الكتاب سألوا رسول الله (ﷺ) أشياءً -من باب التعنت- حتى يصدقوا نبوته؛ وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ سورة البقرة: ١١٨.

١ــ هو شيخ المقرئين أبو محمد سليمان بن مهران، وُلد بنواحي الري ٦١هـ، وقدموا به إلى الكوفة طفلا، روى عن أنس (ﷺ) وسعيد بن جبير، وقرأ على يحيى بن وثّاب وأبي العالية، وقرأ عيه حمزة الزيات؛ تُوفي ١٤٨هـ، يراجع: سير أعلام النبلاء ٢٢٦/٦، وغاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين بن الجزري ٣١٦/١، ط: مكتبة ابن تيمية.

٢ــ يراجع: الكامل في القراءات لابن جُبَّارة الهذلي اليشكري المغربي ٣٧٦/١، ط: مؤسسة سما للتوزيع والنشر.

٣ــ يراجع: جامع البيان ٤٦٧/٢ وما بعدها، ومعالم التنزيل ١٣٣/١، والكشاف ٢٠٠/١، وروح المعاني ٣٤٩/١.

يقول الفخر: "فإن قيل: بل المراد هنا مشركو العرب، والدليل عليه أنه تعالى وصفهم بأنهم لا يعلمون، وأهل الكتاب أهل علم؟! قلنا: المراد أنهم لا يعلمون التوحيد والنبوة كما ينبغي، وأهل الكتاب كانوا كذلك، وقد ثبت أنهم سألوا مثل ذلك، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ سورة النساء: ١٥٣"[١].

ويرى كثير من المفسرين[٢] أن المراد بهم كفار العرب، ويرى مجاهد ت ١٠٤هـ أن المراد بهم النصارى خاصة، ورجحه الإمام الطبري (رحمه الله)[٣]؛ لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم وعن افترائهم عليه وادعائهم له ولدا؛ حيث قال جل ثناؤه مخبرا عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ سورة البقرة: ١١٦.

ويرى الباحث أنه يجوز أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: جميع هذه الطوائف؛ لأنهم جميعًا قالوا هذه المقالة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ سورة الإسراء ٩٠، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ سورة الفرقان: ٢١؛ وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ سورة النساء: ١٥٣.

١ــ مفاتيح الغيب ٢٧/٤.

٢ــ كابن عباس (رضي الله عنهما) والحسن والسُّدِّي؛ يراجع: جامع البيان ٥٥٢/٢ وما بعدها، وزاد المسير ١٠٥/١.

٣ــ يراجع: جامع البيان ٥٥٢/٢.

وعليه فإن كان الموصول في الآية محل الدراسة: الجهلة من العرب؛ فنفي العلم عنهم لأنهم لم يكن لهم كتاب، وإن كان المراد بالموصول اليهود والنصارى؛ فنفي العلم عنهم لانتفاء ثمرته.

وأما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ فالمراد به: الأمم المكذبة من أسلافهم، ولا تدل المثلية على التماثل في نفس المقول، بل وقعت في اقتراح ما لا يليق سؤاله؛ إذ المثلية تصدق بهذا المعنى؛ فكلهم يتشابهون في الضلالة والكفر بالله والكذب والافتراء والتمرد عليه وقلة معرفتهم بعظمته، وتحكمهم على أنبياء الله وجرأتهم على رسله (عليهم السلام)، والكفر والقسوة وطلب المحال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

معنى البينات والهدى:

١٣- ويوضح الفخرُ عن طريق الفنقلة معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ سورة البقرة: ١٥٩، وأنه لا تكرار هنا قائلا:

"فإن قيل: فقد قال: ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾، فعاد إلى الوجه الأول؟

قلنا: الأول: وهو قوله: ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ - هو التنزيل، والثاني ما يقتضيه التنزيل من الفوائد."[١]

فالمراد بـــ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ عند الفخر: كل ما أنزله الله على الأنبياء من الوحي دون أدلة العقول-كما ذكر هو- وأما الهدى فيدخل فيه الدلائل العقلية والنقلية؛ فهو عموم بعد خصوص.

ويرى صاحب الكشاف أن البينات: هي الآيات الشاهدة على أمر محمد (ﷺ)، وَالْهُدى نعْتُهُ بوصفه، أو الأمر باتباعه.[٢]

١ــ مفاتيح الغيب ٤/١٤٠.

٢ــ الكشاف ١/٢٠٩.

ويرى البعض أن البينات والهدى واحد، والجمع بينهما توكيد.[1]

وأرى أن هذا من اختلاف التنوع، وأن اللفظين الكريمين يحتملان جميع هذه المعاني التي ذكرها المفسرون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تسوية المشركين بين محبة الله تعالى ومحبة أوثانهم:

١٤- وبيّن الفخرُ عن طريق الفنقلة أيضًا معنى محبة المشركين لأوثانهم كحبهم لله تعالى، وكذلك معنى كون المؤمنين أشد حبًّا لله تعالى؛ وذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ سورة البقرة: ١٦٥؛ حيث قال:

"فإن قيل: العاقل يستحيل أن يكون حبه للأوثان كحبه لله، وذلك لأنه بضرورة العقل يعلم أن هذه الأوثان أحجار لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وقد كانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعًا مدبرًا حكيمًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ سورة الزمر: ٣٨، ومع هذا الاعتقاد كيف يُعقل أن يكون حبهم لتلك الأوثان كحبهم لله تعالى؟! وأيضًا فإن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ سورة الزمر: ٣، وإذا كان كذلك كان المقصود الأصلي طلب مرضات الله تعالى، فكيف يعقل الاستواء في الحب مع هذا القول؟!

قلنا: قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي في الطاعة لها والتعظيم لها، فالاستواء على هذا القول في المحبة لا ينافي ما ذكرتموه.

ثم قال الفخر: فإن قيل: كيف يمكن أن يقال محبة المؤمنين لله تعالى أشد مع أنا نرى الهنود يأتون بطاعات شاقة لا يأتي بشيء منها أحد من المسلمين، ولا يأتون بها إلا لله تعالى؟!

١ــ يراجع: زاد المسير ١٢٧/١، والبحر المحيط ٦٣٣/١.

والجواب: أن الذين آمنوا لا يتضرعون إلا إلى الله، بخلاف المشركين فإنهم يعدلون إلى الله عند الحاجة، وعند زوال الحاجة يرجعون إلى الأنداد؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ سورة العنكبوت: ٦٥، والمؤمن لا يُعرض عن الله في الضراء والسراء والشدة والرخاء، والكافر قد يعرض عن ربه، فكان حب المؤمن أقوى."[١]

وما ذهب إليه الفخر هنا في تفسير محبة المشركين لأوثانهم كحب الله، وفي تفسير كون المؤمنين أشد حبًّا لله سبقه إليه الإمامان البغوي والزمخشري.[٢]

وخلاصته: أن المشركين يخضعون لأندادهم كخضوعهم لله تعالى؛ وهذا أعظم الذنب كما قال رسول الله (ﷺ) حين سُئل "أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"[٣].

وأما المؤمنون فإنهم لا يعدلون عنه إلى غيره، ولا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد؛ فإنها لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

فمحبة المؤمنين راسخة فيهم؛ وهذا هو المراد من كونهم أشد حبًّا لله، وليس المراد من شدة المحبة شدتها وقوتها في نفسها ليَرِدَ أنا نرى الكفار يأتون بطاعات شاقة لا يأتي بشيء منها أكثر المؤمنين؛ إذ ليس المراد الزيادة في أصل الفعل، بل الرسوخ والثبات، وهو ملاك الأمر؛ ولهذا نزل قوله تعالى:

١ــ مفاتيح الغيب ٤/١٧٥- ٤/١٧٨.

٢ــ يراجع: معالم التنزيل ١٧٨، والكشاف ١/٢١١.

٣ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن ابن مسعود (رضي الله عنه)- وهو السائل- كتاب التفسير، بــاب قوله تعالى: "**فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون**"، حديث رقم ٤٢٠٧.

﴿ٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ سورة هود: ١١٢، و"كان أحب الأعمال إليه (ﷺ) أدومها"[١]، أفاده العلامة الألوسي[٢] (رحمه الله)، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المراد بفوقية المتقين يوم القيامة:

١٥- وبيّن الفخرُ مستخدمًا أسلوب الفنقلة أيضًا المراد بالفوقية في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سورة البقرة: ٢١٢، وأنها تحتمل الفوقية بالمكان؛ لأن المؤمنين يكونون في عليين من السماء والكافرين يكونون في سجين من الأرض، وتحتمل الفوقية في الكرامة والدرجة، يقول الفخرُ:

"**فإن قيل:** إنما يقال: فلان فوق فلان في الكرامة: إذا كان كل واحد منهما في الكرامة، ثم يكون أحدهما أزيد حالاً من الآخر في تلك الكرامة، والكافر ليس له شيء من الكرامة، فكيف يقال: المؤمن فوقه في الكرامة؟!

قلنا: المراد أنهم كانوا فوقهم في سعادات الدنيا، ثم في الآخرة ينقلب الأمر، فالله تعالى يعطي المؤمن من سعادات الآخرة ما يكون فوق السعادات الدنيوية التي كانت حاصلة للكافرين، أو المراد أنهم فوقهم في الحجة يوم القيامة، وذلك لأن شبهات الكفار ربما كانت تقع في قلوب المؤمنين، ثم إنهم كانوا يردونها عن قلوبهم بمدد توفيق الله تعالى، وأما يوم القيامة فلا يبقى شيء من ذلك، بل تزول الشبهات ولا تؤثر وساوس الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ سورة المطففين: ٣٤، أو أن سخرية المؤمنين بالكفار

١ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن عائشة (رضي الله عنها)، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم ٦٠٩٩.

٢ــ يراجع: روح المعاني ٤٣٢/١.

يوم القيامة فوق سخرية الكافرين بالمؤمنين في الدنيا؛ لأن سخرية الكافر بالمؤمن باطلة، وهي مع بطلانها منقضية، وسخرية المؤمن بالكافر في الآخرة حقة، ومع حقيتها هي دائمة باقية."[١]

ذلك كلام الفخر (رحمه الله)، وقد سبقه إليه الإمامان البغوي والزمخشري[٢]، وخلاصة كلامهم ومفهومه أن الفوقية إما أن تكون على حالها من الظرفية المكانية حقيقة -وقد اختاره الإمام الطبري[٣]- لأن المؤمنين يكونون في عليين في السماء والكفار في سجين في الأرض، وإما أن تكون الفوقية مجازًا إما بالنسبة إلى النعيمين؛ نعيم المؤمنين في الجنة ونعيم الكافرين في الدنيا، وإما بالنسبة إلى حجج المؤمنين وشبه الكفار؛ لثبوت الحجج وتلاشي الشبه، وإما بالنسبة إلى ما زعم الكفار من قولهم: إن كان لنا معاد فلنا فيه الحظ، وإما بالنسبة إلى سخرية المؤمنين بهم في الآخرة وسخرية الكافرين بالمؤمنين في الدنيا، فهم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم، وإما بالنسبة إلى علوّ حالهم؛ لأنهم في كرامة والكفار في هوان، وكلها وجوه تحتملها الآية الكريمة.

لكن ينبغي معرفة أن الفوقية هنا لا تقتضي التشريك في التفضيل، وإنما تدل على مطلق العلوّ، فالآية لا تدل على أن الكفار في علوّ حقيقي أو مجازي، بل المعنى أن العلوّ يوم القيامة إنما هو للمتقين وغيرهم سافلون[٤]؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ سورة الفرقان: ٢٤، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ مفاتيح الغيب ٦/٣٦٩-٣٧٠.

٢ــ يراجع: معالم التنزيل ١/٢٤٢، والكشاف ١/٢٨٢.

٣ــ يراجع: جامع البيان ٤/٢٧٤.

٤ــ يراجع: المحرر الوجيز ١/٢٨٤-٢٨٥ بتصرف، والبحر المحيط ٢/١٣٩.

معنى قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾

١٦- وعن طريق الفنقلة أيضًا بيّن الفخرُ معنى قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ سورة البقرة: ٢٢٣، فقال بعد ذكره للأقوال في معنى الآية[١]: "فإن قيل: فما المختار من هذه الأقاويل؟

قلنا: قد ظهر عن المفسرين أن سبب نزول هذه الآية هو أن اليهود كانوا يقولون: من أتى المرأة من دبرها في قُبلها جاء الولد أحول[٢]، فأنزل الله تعالى هذا لتكذيب قولهم، فكان الأولى حمل اللفظ عليه، وأما الأوقات فلا مدخل لها في هذا الباب؛ لأن ﴿أَنَّىٰ﴾ يكون بمعنى مَتَى ويكون بمعنى كَيْفَ، وأما العزل وخلافه فلا يدخل تحت ﴿أَنَّىٰ﴾؛ لأن حال الجماع لا يختلف بذلك، فلا وجه لحمل الكلام إلا على ما قلنا."[٣]

فذهب الفخرُ في المعنى هنا إلى ما ذهب إليه جمهور العلماء[٤] من أن المعنى: من أي وجه وجهة شئتم مقبلة ومدبرة وعلى جنب؛ لمناسبته ما صح في سبب النزول، ولأن (أَنَّى) أعم في اللغة من كيف وأين ومتى؛ فالعرب تدلّ

١ــ قال الفخر: اختلف المفسرون في تفسير قوله: (أَنَّى شِئْتُمْ) على أقوال: **الأول** –وهو المشهور– أنه يجوز للزوج أن يأتيها من قُبلها في قُبلها ومن دبرها في قُبلها، **والثاني:** أن المعنى: أي وقت شئتم من أوقات الحِل؛ يعني: إذا لم تكن صائمة أو حائضًا، **والثالث:** أنه يجوز للرجل أن ينكحها قائمة أو باركة أو مضطجعة بعد أن يكون في الفرج، الرابع: قال ابن عباس (رضي الله عنهما): المعنى إن شاء عزل وإن شاء لم يعزل، الخامس: متى شئتم من ليل أو نهار؛ مفاتيح الغيب ٤٢٣/٦.

٢ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: نساؤكم حرث لكم، حديث رقم ٤٢٥٤.

٣ــ مفاتيح الغيب ٤٢٣/٦.

٤ــ يراجع: جامع البيان ٤١٣/٤-٤١٥، والمحرر الوجيز ٢٩٩/١.

بها على المسألة عن الوجوه؛ فكأن القائل إذا قال لرجل: أنى لك هذا المال؟ يريد: من أيّ الوجوه لك، ولذلك يجيب المجيبُ فيه بأن يقول:من كذا وكذا، كما قال تعالى ذكره مخبرًا عن زكريا في مسألته مريم: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سورة آل عمران: ٣٧، ولو أن قائلا قال لآخر: أنى تأتي أهلك؟ لكان الجواب أن يقول: من قُبُلها أو من دُبُرها في قُبُلها.

والآية من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهي وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم، أفاده الزمخشري (رحمه الله)[1]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بيان كيفية المحافظة على الصلوات المفروضة:

١٧- وعن طريق الفنقلة أيضًا يبين الفخرُ معنى المحافظة على الصلوات المأمور بها في قوله تعالى:﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾سورة البقرة: ٢٣٨؛ فيقول:

"**فإن قيل:** المحافظة لا تكون إلا بين اثنين -كالمخاصمة والمقاتلة- فكيف المعنى ههنا؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب؛ كأنه قيل له: احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذي أمرك بالصلاة؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ سورة البقرة: ١٥٢

الثاني: أن تكون المحافظة بين المصلي والصلاة؛ فكأنه قيل: احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة، واعلم أن حفظ الصلاةُ للمصلي على **ثلاثة أوجه: الأول:**

١ــ الكشاف ٢٩٤/١.

أن الصلاة تحفظه عن المعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ سورة العنكبوت: ٤٥، فمن حفظ الصلاة حفظته الصلاة عن الفحشاء، **والثاني:** أن الصلاة تحفظه من البلايا والمحن؛ قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ سورة البقرة: ١٥٣، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾سورة المائدة: ١٢، **والثالث:** أن الصلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصليها؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة البقرة: ١١٠، ولأن الصلاة فيها القراءة، والقرآن يشفع لقارئه، والله أعلم."[١]

وقد رام الفخرُ–كما ترى– إلى إبقاء (فاعل) على معناها الأكثر فيها من الاشتراك بين اثنين، فجعل المحافظة بين العبد وبين الرب، أو بين المصلي والصلاة.

ويرى البعضُ[٢] أن المفاعلة في الشيء: فِعْلُهُ المرة بعد المرة، ومنه حافظ عليه، وبالتالي فمعنى المحافظة هنا على الصلوات: دوام ذكرها، أو الدوام على تعجيلها في أول أوقاتها، أو إكمال فروضها وسننها وآدابها ومعانيها القلبية، أو جميع ما تقدّم.

والسر في استعمال صيغة المفاعلة على هذا: إفادة المبالغة في ذلك، وأيضًا لأن المفاعلة تدل على المنازعة والمقاومة، والمحافظة على الصلاة فيها هذا المعنى الجليل بمغالبة دواعي التفريط مما توسوس به النفس في الطاعات عامة؛ وذلك لأن من يديم الصلاة مقيمًا لها على وجهها تقاومه نوازع النفس

١ــ مفاتيح الغيب ٤٨٣/٦.

٢ــ يراجع: البحر المحيط ٢٤٨/٢، وإرشاد العقل السليم ٢٣٥/١، والمنار ٣٤٦/٢، وزهرة التفاسير لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى ٨٣٩/٢، ط: دار الفكر.

الأمارة بالسوء، وإن ذلك يقتضي مغالبة نفسية، فكان التعبير بالمحافظة دالا على ذلك أو مشيرًا إليه.

فصيغة المحافظة ليست للدلالة على المشاركة في الحفظ-كما رجحه الفخرُ- بل تدل على المغالبة في سبيله؛ كالمصابرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

مَن أحياه الله تعالى بعد موته:

١٨- واستعمل الفخرُ أسلوب الفنقلة عدة مرات لبيان أن الذي مرّ بالقرية في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ سورة البقرة: ٥٩؛ كان نبيًّا، وردَّ على من ذهب إلى أنه كان رجلاً كافرًا شاكًّا في البعث -وهو قول مجاهد وأكثر المفسرين من المعتزلة- بحجة أن استبعاد الإحياء بعد الإماتة من الله كفر، فقال:

"**فإن قيل:** يجوز أن ذلك وقع منه قبل البلوغ!!!

قلنا: لو كان كذلك لم يجز من الله تعالى أن يعجب رسوله منه؛ إذ الصبي لا يُتعجَّب من شكه في مثل ذلك، وهذه الحجة ضعيفة؛ لاحتمال أن ذلك الاستبعاد ما كان بسبب الشك في قدرة الله تعالى على ذلك، بل كان بسبب اطراد العادات في أن مثل ذلك الموضع الخراب قلما يصيره الله معمورًا، وهذا كما أن الواحد منا يشير إلى جبل فيقول: متى يقلبه الله ذهبًا أو ياقوتًا، لا أن مراده منه الشك في قدرة الله تعالى، بل على أن مراده منه أن ذلك لا يقع ولا يحصل في مطرد العادات، فكذا هنا.

فإن قيل: لعل القائل كان كافرًا، والله تعالى بعث إليه رسولاً أو ملكًا حتى قال له هذا القول عن الله تعالى؟!

قلنا: ظاهر هذا الكلام يدل على أن قائل هذه الأقوال معه هو الله تعالى، فَصَرْفُ اللفظ عن هذا الظاهر إلى المجاز من غير دليل يوجبه غير جائز.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إن كل هذه الأشياء إنما أدخلها الله تعالى في الوجود إكرامًا لإنسان آخر كان نبيًّا في ذلك الزمان؟!

قلنا: لم يجر في هذه الآية ذكر هذا النبي، فلو كان المقصود من إظهار هذه الأشياء إكرام ذلك النبي وتأييد رسالته بالمعجزة لكان ترك ذكر ذلك الرسول إهمالاً لما هو الغرض الأصلي من الكلام، وهذا لا يجوز.

فإن قيل: لو كان ذلك الشخص نبيًّا لكان إما أن يقال: إنه ادعى النبوّة من قبل الإماتة والإحياء أو بعدهما، والأول باطل؛ لأن أرسال النبي من قبل الله يكون لمصلحة تعود على الأمة، وذلك لا يتم بعد الإماتة، وإن ادعى النبوّة بعد الإحياء فالمعجز قد تقدم على الدعوى، وذلك غير جائز!!!

قلنا: إظهار خوارق العادات على يد من يعلم الله أنه سيصير رسولاً جائز عندنا، وعلى هذا الطريق زال السؤال.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد مِن جَعْله آيةً أن من عرفه من الناس شابًّا كاملاً إذا شاهدوه بعد مائة سنة على شبابه وقد شاخوا أو هرموا أو سمعوا بالخبر أنه كان مات منذ زمان وقد عاد شابًّا، صح أن يقال لأجل ذلك: إنه آية للناس؛ لأنهم يعتبرون بذلك، ويعرفون به قدرة الله تعالى؟!

والجواب: أن جَعْله آيةً للناس يدل على التشريف العظيم، وذلك لا يليق بحال من مات على الكفر والشك في قدرة الله تعالى."[1]

والناظر في كلام الفخر يجده قد رجّح في الذي مر على القرية أنه كان من الأنبياء، واستبعد قول من قال[2]: إنه كان من الكافرين بالبعث؛ لانتظامه مع نمروذ في سلك؛ ولكلمة الاستبعاد التي هي (أنى).

١ــ مفاتيح الغيب ٢٦/٧ وما بعدها.

٢ــ كصاحب الكشاف (رحمه الله)؛ يراجع: الكشاف ٣٣٤/١.

وأرى – والله الهادي للصواب– أن اختياره هو الصحيح؛ لأن الكافر لا يُؤَيَّدُ بآيات الله، والآية الكريمة على ذلك استشهادٌ على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقريرٌ لَهُ ومَثَلٌ لهداية الله تعالى للمؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولعل إيثار (أو) الفارقةِ على الواو الجامعة؛ للاحتراز عن توهّم انتظام هذه القصة مع قصة النمروذ، بل المناسبة المعنوية بين قصتنا وقصة إبراهيم (عليه السلام) الآتيةُ بَعَدُ ظاهرة؛ فإن كليهما طلب معاينة الإحياء والمخرج بالبرهان من ظلمة الحيرة إلى نور الطمأنينة، فهداهما الله إليه.

وقد أَبْهَمَ اللهُ تعالى هذا الْمَارَّ وهذه القرية، واقتصر على ما تقوم به الحجة، حتى لا يشغل الْقَارِئَ عنها شَاغِلٌ، ولكن المفسرين أبوا إلا أن يبحثوا عن القرية وعمن مر بها!!![1].

قال أبو جعفر (رحمه الله): "لا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قِبَلِهِ البيان على اسم قائل ذلك، وجائز أن يكون ذلك عزيرا، وجائز أن يكون غيره، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت، ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبًا يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قِيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه."[2]

معنى الحكمة:

١٩– واستعان الفخر بالفنقلة أيضًا لبيان معنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ سورة البقرة: ٢٦٩، فقال:

١ــ يراجع: إرشاد العقل السليم ٢٥٢/١، وروح المعاني ٢٠/٣–٢١، والمنار ٤١/٣–٤٢.

٢ــ جامع البيان ٤٤١/٥.

"**فإن قيل:** لم لا يجوز أن يكون المراد من الحكمة: النبوّة والقرآن؟!

قلنا: ثبت بالنقل المتواتر أن لفظ الحكيم يُستعمل في غير الأنبياء، فتكون الحكمة مغايرة للنبوّة والقرآن، بل هي مُفسرَّة إما بمعرفة حقائق الأشياء، أوبالإقدام على الأفعال الحسنة الصائبة."(١)

وجميع الأقوال التي ذكرها المفسرون في الحكمة متقاربة، لأنها مأخوذة مِن حكَم: بمعنى منع، وهي في الإنسانية صفة نفسية توصل الإنسان إلى الإتقان في القول والعمل والإصابة في جميع الأمور، وتوجهه نحو عمل الخير.(٢)

وعليه فإن الحكيم هو العالم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، سليم العقل، معتدل القوى، العامل بالحق، المنقاد له، فلا يصده عنه هوى ولا عناد ولا عصبية.

وعليه أيضًا فالحكمة لا تختص بالنبوة، بل النبوة من أقسامها؛ لأن الأنبياء موفقون لإصابة الصواب، وأيضًا الفقه في دين الله من أقسامها، وكذا الخشية.

والخلاصة: أن الآية رافعة لشأن الحكمة بأوسع معانيها قارنة الخير بها الكثير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

معنى حرب الله مع المرابين من المسلمين:

٢٠- وبيّن الفخرُ عن طريق الفنقلة أيضًا المراد من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ سورة البقرة: ٢٧٨-٢٧٩، فقال:

١ــ مفاتيح الغيب ٥٩/٧.

٢ــ يراجع: جامع البيان ٥٧٩/٥، ومعالم التنزيل ٣٣٤/١، والكشاف ٣٤٣/١، وتفسير القرآن العظيم ٧٠١/١، وتفسير المنار ٦٤/٣، وزهرة التفاسير ١٠٠٩/٢.

"**فإن قيل:** ما معنى المحاربة مع المسلمين؟

قلنا: هذه اللفظة قد تُطلق على من عصى الله غير مستحل؛ كما جاء في الخبر:"من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب"[1]، وقد جعل كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ سورة المائدة: ٣٣، في قطاع الطريق من المسلمين، فثبت أن ذكر هذا النوع من التهديد مع المسلمين وارد في كتاب الله وفي سنّة رسوله (ﷺ).

إذا عرفت هذا فنقول: المراد من ذلك المبالغة في التهديد دون نفس الحرب، أو المراد نفس الحرب، وفيه تفصيل فنقول: الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر الإمام عليه قبض عليه أجرى فيه حكم الله من التعزيز والحبس إلى أن تظهر منه التوبة، وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، كما حارب أبو بكر (رضي الله عنه) مانعي الزكاة."[2]

وكلام الفخر هنا صحيح؛ لأن الظاهر أن الخطاب في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ هو لمن صدرت الآية بذكره، وهم المؤمنون، وعليه فالإعلام أو العلم بالحرب -لأنه قُرئ: فآذنوا[3]- جاء على سبيل التهديد دون حقيقة الحرب؛ فحرب الله لهم مجاز عن غضبه وانتقامه، ونحن نرى في واقعنا أهلَ الربا يَتَكَفَّفُونَ بعد غناهم، أو المراد نفس الحرب؛ لأن من أصر على الربا إن كان ممن لا يقدر

١ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم ٦١٣٧.

٢ــ مفاتيح الغيب ٨٤/٧.

٣ــ قراءة عاصم؛ يراجع حجة القراءات لأبي زرعة بن زنجلة ١٤٨/١، ط: مؤسسة الرسالة، ت: سعيد الأفغاني.

عليه الإمام حاربه كما تُحارَب الفئة الباغية، واللفظ محتمل للمعنيين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

معنى النسيان:

٢١- وبيّن الفخرُ معنى النسيان في قوله تعالى مخبرًا عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ سورة البقرة: ٢٨٦، واستخدم الفنقلة أيضًا، فقال: "المراد منه: هو النسيان نفسه الذي هو ضد الذكر.

فإن قيل: أليس فعل الناسي محل العفو؟! فما معنى طلب العفو عنه في الدعاء؟!

قيل: النسيان منه ما يُعذَر فيه صاحبه ومنه ما لا يُعذَر، ألا ترى الإنسان إذا تغافل عن الدرس والتكرار حتى نسي القرآن يكون ملومًا، وأمَّا إذا واظب على القراءة لكنه بعد ذلك نسي فههنا يكون معذورًا، وإذا كان كذلك صح طلب غفرانه بالدعاء.

وقد يكون المقصود من الدعاء هنا إظهار التضرع إلى الله تعالى لا طلب الفعل، ولذلك فإن الداعي كثيرًا ما يدعو بما يقطع بأن الله تعالى يفعله، سواء دعا أو لم يدع؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ الأنبياء: ١١٢، وقالت الملائكة في دعائهم: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ سورة غافر: ٧، فكذا في هذه الآية العلم بأن النسيان مغفور لا يمنع من حسن طلبه في الدعاء.

وأصحابنا الذين يجوزون تكليف ما لا يطاق يتمسكون بهذه الآية فيقولون: الناسي غير قادر على الاحتراز عن الفعل فلولا أنه جائز عقلاً من الله تعالى أن يعاقب عليه لما طلب بالدعاء ترك المؤاخذة عليه.

وقد يُحمل النسيان على الترك؛ قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ سورة التوبة: ٦٧؛ أي تركوا العمل لله فتركهم، ويقول الرجل لصاحبه: لا تنسني من

عطيتك: أي لا تتركني، فالمراد بهذا النسيان أن يترك الفعل لتأويل فاسد، والمراد بالخطأ أن يفعل الفعل لتأويل فاسد."[1]

والفخرُ هنا – كما ترى – موفَّق غاية التوفيق، وقد سبقه إلى بعض هذه المعاني الإمام الزمخشري[2]، والآية الكريمة مرشدة إلى أن التقي يستكثر هفواته، ويستقل حسناته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ مفاتيح الغيب ١١٩/٧ وما بعدها.

٢ــ يراجع: الكشاف ٣٥٩/١.

المبحث الثاني

(تجلية وجوه الإعجاز البلاغي)

بلاغة القرآن الكريم وجه من أهم وجوه إعجازه، ولذا استعان الفخر بالفنقلة في تجلية هذا الوجه، وبيّن مراتب الحسن في الآيات القرآنية، واستخرج الفوائد جمّة المنافع، بعيدة الغاية، وإليك أمثلة على ذلك من سورة البقرة:

سر تكرير الإشارة ووجود العاطف:

١- عند تفسير الفخر لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ سورة البقرة :٥، يبين سر تكرير اللفظ الكريم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وهو التنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضًا، فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين، ثم يستعمل الفنقلة لإظهار سر وجود العاطف معه، فيقول:

"**فإن قيل:** فلم جاء مع العاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ سورة الأعراف: ١٧٩؟

قلنا: قد اختلف الخبران هنا؛ فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين هناك؛ فإنهما يتفقان؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، وكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى، فهي من العطف بمعزل."[١]

والذي ذكره الفخرُ هنا من السر البلاغي قد أفاده من الزمخشري[٢] (رحمه الله)؛ حيث سبقه إليه، ودلَّه عليه.

وأما قوله: الخبران يختلفان هنا؛ فالهدى سبب الفلاح الذي هو عبارةٌ عن الفوز بالمطلوب، والهدى حاصل في الدنيا والفلاح في الآخرة، فلمّا كان

١ــ مفاتيح الغيب ٢/٢٧٩.

٢ــ الكشاف ١/٨٥.

أحدهما مغايرًا للآخر، وكان كلٌّ منهما في نفسه أعزَّ مرامٍ يتنافس فيه المتنافسون، دخل العاطف؛ لأنه الأصل في ذكر الجمل بعضها بعد بعض، وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات التي في أول السورة يقتضي كل واحد من المذكور هنا من الهدى والفلاح، وقيل: التغاير بالعموم والخصوص؛ كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ سورة القدر: ٤، أو باعتبار أن المراد بالمعطوف عليه: مَن آمن مِن العرب الذين ليسوا بأهل كتاب، وبالمعطوف: من آمن به (ﷺ) من أهل الكتاب[١]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

من أسرار استخدام أدوات الشرط:

٢- ويبين الفخرُ السرَّ البلاغي في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ سورة البقرة: ٢٠، عن طريق الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل:** كيف قال مع الإضاءة:﴿كُلَّمَآ﴾، ومع الإظلام: ﴿وَإِذَآ﴾ ؟

قلنا: لأنهم حراص على إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف، ومعنى قاموا: وقفوا وثبتوا في مكانهم."[٢]

والآية الكريمة – على قول جمهور المفسرين[٣]- مَثَلٌ ضربه الله للإسلام؛ فالمطر: الإسلام، والظلمات: ما فيه من البلاء والمِحَن، والرعد: ما فيه من الوعيد الشديد، والبرق: ما فيه من فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن

١ــ يراجع: أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين البيضاوي ١٣٢/١، ط: دار الفكر- بيروت، وإرشاد العقل السليم ٣٤/١، وروح المعاني ١٢٠/١، والتحرير والتنوير ٢٤٦/١.

٢ــ مفاتيح الغيب ٣١٨/٢.

٣ــ يراجع: الكشاف ١١٨/١، والمحرر الوجيز ١٠٢/١، والبحر المحيط ٢٢٩/١، وإرشاد العقل السليم ٥٥/١، وروح المعاني ١٧٥/١.

تبهرهم، وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق، فالمنافقون كلما رأوا غنيمة وراحة في الإسلام وصلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا: دين محمد (ﷺ) دين مبارك، وقالوا: إنا معكم، وإذا رأوا شدة وبلاء وإذا نزلت بهم مصيبة أو أصابتهم شدة سخطوا الإسلام وثبتوا في نفاقهم؛ ولو شاء الله لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما ذهب بالباطنة، أو لذهب بما استفادوا من العز والأمان الذي لهم بمنزلة السمع والبصر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ سورة الحج: ١١، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السر في التعريف والتنكير:

٣- ويبين الفخر مستعملاً الفنقلة السر في تنكير الجنات وتعريف الأنهار في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾سورة البقرة: ٢٥؛ فيقول:

"**فإن قيل:** لم نُكرت الجنات وعُرفت الأنهار؟

الجواب: أن الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنات كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنات، وأما تعريف الأنهار فالمراد به الجنس، كما يقال: لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب، يشير إلى الأجناس التي في علم المخاطَب، أو يشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ سورة محمد (ﷺ): ١٥"[١].

١ــ مفاتيح الغيب ٢/٣٥٨.

وقد سبقه إلى ذلك الزمخشري[1] (رحمه الله)، ويلاحظ أن الفخر يستفيد معظم لطائفه البلاغية منه؛ إلا أنه بيّن أن الزمخشري دسّ مذهبه الاعتزالي بقوله: على حسب استحقاق العاملين- لأنه لا يستحق أحد شيئًا على الله تعالى- وذلك في كثير من مواضع مفاتيح الغيب، ولعل التعبير اللائق أن يقال: السر في تنكير جنات أن في كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعُمَّال، وأما تعريف الأنهار فللإشارة إلى أنها نعمة مستقلة جديرة بألا يكون التنعم بها تبعًا للتنعم في الجنات، أو للتفنن – كما قال ابن عاشور[2](رحمه الله)- لئلا يعاد التنكير مرة ثانية.

ولعلني أشير بإذن الله إلى قضية قول المعتزلة بالوجوب على الله تعالى وبطلان قولهم عند حديثي عن استخدام الفخر للفنقلة في الحجاج مع المعتزلة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السر في التقديم والتأخير:

٤- ويبين الفخرُ عن طريق الفنقلة السرَّ في التقديم والتأخير في قصة الأمر بذبح البقرة وقصة ذِكْر القتيل، فيقول:

"**فإن قيل:** هب أنه لا خلل في هذا النظم – يعني تقديم قصة الأمر بذبح البقرة على قصة ذِكْر القتيل- ولكن النظم الآخر –وهو تقديم قصة ذِكْر القتيل- كان مستحسنًا، فما الفائدة في ترجيح هذا النظم؟!

قلنا: إنما قُدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذِكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من تثنية التقريع."[3]

١ــ الكشاف ١/١٣٥.

٢ــ التحرير والتنوير ١/٣٥٥.

٣ــ مفاتيح الغيب ٣/٥٥١.

وسبب قول الفخر هذا الكلام أن وقوع ذلك القتل متقدم في الوجود على أمره تعالى بالذبح، والحق أن التقدم في الوجود لا يعني وجوب التقدم في الذكر؛ لأنه تارة يُستحسن من البليغ تقديم ذكر السبب على ذكر الحكم، وتارة يُستحسن العكس من ذلك؛ فكأنه لمَّا وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم تعالى بذبح البقرة، فلمَّا ذبحوها قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ سورة البقرة: ٧٢؛ أي من قبل، ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾؛ أي اختلفتم وتنازعتم، وإني مظهر لكم القاتل الذي سترتموه بأن يُضرَب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة، وذلك مستقيم.

يقول الزمخشري (رحمه الله):

"كل ما قُصَّ من قصص بني اسرائيل إنما قُصَّ تعديدًا لما وُجد منهم من الجنايات وتقريعًا لهم عليها، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين؛ فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قُدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها؛ وذلك أنها وُصلت بالأولى –دلالةً على اتحادهما– بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ سورة البقرة: ٧٣"[١].

ويرى أبو حيان (رحمه الله) أنه يجوز أن يكون ترتيب وجودهما ونزولهما على حسب تلاوتهما، فيكون الله تعالى قد أمرهم بذبح البقرة، فذبحوها وهم لا يعلمون بما له تعالى فيها من السر، ثم وقع بعد ذلك أمر القتيل، فأظهر لهم ما كان أخفاه عنهم من الحكمة بقوله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، ولا شيء يضطرنا إلى

١ــ الكشاف ١٨٢/١.

اعتقاد تقدم قتل القتيل ثم السؤال عن تعيين قاتله، ولا إلى اعتقاد كون الأمر بالذبح وما بعده مؤخرًا في النزول متقدِّمًا في التلاوة، والإخبار عن قتلهم مقدَّمًا في النزول متأخرًا في التلاوة، والذي حمل البعض على خلاف الظاهر ما رووا من القصص الذي لا يصح مما لم يرد به كتاب ولا سنّة، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى، إذ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنما يكون لمرجح، ولا مرجح، بل تظهر الحكمة البالغة في تكليفهم أولاً ذبح بقرة وأنهم هل يمتثلون ذلك أم لا؟ وامتثال التكاليف التي لا يظهر فيها ببادىء الرأي حكمة أعظم من امتثال ما تظهر فيه حكمة؛ لأنها طواعية صرف وعبودية محضة واستسلام خالص، بخلاف ما تظهر له حكمة؛ فإن في العقل داعية إلى امتثاله والعمل به."[1]

وأرى – والله الموفق– أن التقديم والتأخير حسن، وهو موجود في القرآن في غير هذا الموضع؛ كما في قصة نوح (عليه السلام) مع قومه؛ فلقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ سورة هود: ٤١؛ وذلك بعد قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَ﴾ سورة هود: ٤٠ ، ومعلوم أن الإهلاك كان بعد الركوب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سر ذكر الشهادة بعد الإقرار:

٥- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى مخاطبًا اليهود: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ سورة البقرة: ٨٤؛ يبين عن طريق الفنقلة السر في قوله تعالى:﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَقۡرَرۡتُمۡ﴾ فيقول:

١ــ البحر المحيط ٤٢٣/١.

"**فإن قيل:** لم قال: ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ والمعنى واحد؟

قلنا: فيه ثلاثة أقوال: **الأول:** ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ يعني أسلافكم، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ الآن يعني على إقرارهم، **الثاني:** ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ في وقت الميثاق الذي مضى، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بعد ذلك، **الثالث:** أنه للتأكيد."[1]

وحاصله أنه يجوز أن يكون الخطاب واردًا على قدماء بني إسرائيل، أو لمعاصريه (ﷺ) من أبنائهم، والحق أنه يُشْبِهُ بعضهم بعضًا ويُشْبِهُ خَلَفُهُم سلفَهم في النفاق ونقض العهود والمواثيق، فليس ببعيد أن الخطاب يجري عليهما كما ذكره الفخر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصْف العذاب بالمهين:

٦- ويبين الفخرُ عن طريق الفنقلة أيضًا سر وصف العذاب بالمهين في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ سورة البقرة: ٩٠؛ فيقول:

" **فإن قيل:** العذاب لا يكون إلا مع الإهانة، فما الفائدة في هذا الوصف؟!

قلنا: كون العذاب مقروناً بالإهانة أمر لا بد فيه من الدليل، فالله تعالى ذكر ذلك ليكون دليلاً عليه."[2]

ويرى الإمام الطبري (رحمه الله) أن المهين الذي يورث صاحبه ذلة وهوانا: هو الذي يُخلَّد فيه صاحبه، لا ينتقل من هوانه إلى عز وكرامة أبدًا، وهو الذي خص الله به أهل الكفر به وبرسله، وأما الذي هو غير مهين صاحبه: فهو ما كان تمحيصًا لصاحبه، وذلك كعذاب السارق من أهل الإسلام، يسرق ما يجب عليه به القطع فتقطع يده، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحد، وما أشبه ذلك من العذاب والنكال الذي جعله الله كفارات للذنوب التي عُذِّب بها أهلها، وكأهل

١ــ مفاتيح الغيب ٣/٥٩١.

٢ــ المصدر نفسه ٣/٦٠٢.

الكبائر من أهل الإسلام الذين يُعذَّبون في الآخرة بمقادير جرائمهم التي ارتكبوها؛ ليمحصوا من ذنوبهم، ثم يدخلون الجنة؛ فإن كل ذلك وإن كان عذابا فغير مهين من عُذِّب به؛ إذ كان تعذيب الله إياه به ليمحصه من آثامه، ثم يورده معدن العز والكرامة، ويخلده في نعيم الجنان.[1]

فأفاد كلامه أن غير الكافرين إذا عُذِّب فإنما يُعذَّب للتطهير، لا للإهانة والإذلال؛ ولذا لم يوصف عذاب غيرهم بالمهين في القرآن الكريم؛ وإنما كان عذابهم كذلك لتكبرهم واستعلائهم حتى ظنوا أن الكون يجري كما يريدون، فكل من اقتدى بهم، وفعل فعلهم، وتكبر مثلهم، وأهان العباد؛ وأفسد في البلاد؛ فإن غضبه تعالى يشتد عليه، وهو سبحانه القاهر فوق عباده الذي يهين كل عتل أثيم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سر التكرار مع اختلاف اللفظة:

٧- ويوضح الفخر أيضًا عن طريق الفنقلة السر في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة: ٩٥، وقوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ سورة الجمعة: ٧؛ فيقول:

"**فإن قيل:** إنه تعالى قال ههنا: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، وقال في سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ ، فلم ذكر ههنا (لن) وفي سورة الجمعة (لا)؟

قلنا: إنهم في هذه السورة ادعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وادعوا في سورة الجمعة أنهم أولياء لله من دون الناس، والله تعالى أبطل هذين الأمرين بأنه لو كان كذلك لوجب أن يتمنوا الموت، والدعوى الأولى أعظم من الثانية؛ إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب،

١ــ جامع البيان ٣٤٧/٢.

وأما مرتبة الولاية فهي وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تُراد ليُتوسل بها إلى الجنة، فلما كانت الدعوة الأولى أعظم لا جرم بين تعالى فساد قولهم بلفظ (لن)؛ لأنه أقوى الألفاظ النافية، ولمّا كانت الدعوى الثانية ليست في غاية العظمة لا جرم اكتفى في إبطالها بلفظ (لا)؛ لأنه ليس في نهاية القوة في إفادة معنى النفي، والله أعلم."[١]

فالفخر يريد أن دعواهم هنا أعظم من دعواهم هناك؛ لأن السعادة القصوى فوق مرتبة الولاية؛ فالثانية تراد لحصول الأولى، ولن أبلغ في النفي من لا، فجعلها للنفي الأعظم.

وهناك من يرى – كالإمام الآلوسي[٢]– أن المخالفة بينهما من باب التفنن؛ لأن كليهما لنفي المستقبل من غير تأكيد.

وعلى كل فالتمني عمل قلبي يعني تشوف القلب إلى محبوبه، والمراد به هنا لازمه القولي أو الفعلي – كما ذهب إليه صاحب الكشاف[٣]– فإن من تمنى شيئًا طلبه بالقول أو بالفعل أو بهما.

ولم يُنقل أنهم قالوا ذلك رغم أنهم قد قاولوا المسلمين بأشياء فيها افتراء على الله وتحريف لكتابه، فقد روي عن ابن عباس[٤](رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال لهم: والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غُصَّ بريقه، فلم يتمنه أحد منهم، وما ذلك إلا لأنهم كانوا موقنين بصدقه (ﷺ)، فعلموا أنهم لو تمنوا لما أتموا ساعتهم ولحقهم الوعيد، وهذه إحدى المعجزات.

١ــ مفاتيح الغيب ٦٠٨/٣.

٢ــ روح المعاني ٩٦/٢٨.

٣ــ الكشاف ١٩٢/١.

٤ــ جامع البيان ٣٦٧/٢.

ولم يُعرف أيضًا عن أحد من متقدمي اليهود أو متأخريهم محبة التعرض للقتل في سبيل الإيمان!!!

والعبرة في الآية عامة، ولذا يجب على المسلمين أن يتخذوا من المذكور في الآية ميزانًا يزنون به دعواهم اليقين في الإيمان والقيام بحقوقه.

ولذا رُوِيَ عن كثير من الصحابة (ﷺ) تَمَنِّي الموت عند القتال وبعده، فعلي (ﷺ) كان يطوف بين الصفوف ين في قائلا: لا أبالي على الموت سقطت أم سقط عليَّ الموت، وعن حذيفة (ﷺ) أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم.[1]

فتمني الموت لأجل الاشتياق إلى دار النعيم ولقاء الكريم غير منهي عنه، إنما النهي عن تمنيه لأجل ضر أصابه؛ فإنه أثر الجزع وعدم الرضا بالقضاء.

ومن لم يبلغ منزلة الصحابة وأولياء الله من المسلمين فلا يضيره الخوف من الموت؛ لأن جميع المسلمين لا يزول عنهم خوف الخاتمة، والخاطىء منهم مفتقر إلى زمان يتدارك فيه تكفير خطئه، ولا يعارض هذا ما سبق بيانه؛ لأن الأنبياء والصالحين إنما قالوا ما قالوا لاشتياقهم لله تعالى ولدار النعيم، وأما اليهود فجعلوا لنفسهم من المنزلة عند الله ما لم يجعله الخائفون من الموت من المسلمين؛ لخوفهم مما أسلفت ذكره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ذِكْر الخاص بعد العام:

٨- وعن طريق الفنقلة أيضًا يوضح الفخرُ الأسرار البلاغية في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ سورة البقرة: ٩٦؛ فيقول:

١ــ الكشاف ١٩٢/١.

"**فإن قيل:** ألم يدخل ﴿ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ تحت ﴿ٱلنَّاسِ﴾؟

قلنا: بلى، ولكنهم أُفردوا بالذكر؛ لأن حرصهم شديد، وفيه توبيخ عظيم؛ لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بالمعاد، وما يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد؛ لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص مَن له كتاب –وهو مقر بالجزاء– كان حقيقًا بأعظم التوبيخ.

فإن قيل: ولم زاد حرصهم على حرص المشركين؟

قلنا: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك."[1]

ولقد سبق الفخرَ الزمخشريُّ[2] إلى ذلك.

وتنكير﴿حَيَوٰةٍ﴾ هنا للتحقير؛ أي أنهم أحرص الناس على أحقر حياة وأقل مكث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة ومكث متطاول؟

ويرى البعض – كصاحب الكشاف[3]– أنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة؛ وهي الحياة المتطاولة.

وأرى – والله الموفق– أن التنكير يفيد تعميم معاني الحياة، فهم يحرصون على حياة أيًّا كانت صورتها، سواء كانت حياة ذل أم كانت حياة عز، وسواء كانت حياة استعباد أم كانت حياة حرية، وسواء أكانت تحكمها الفضيلة أم كانت تحكمها الرذيلة، إنهم يحرصون على الحياة ذاتها من غير نظر إلى وصفها سواء أكانت مقيتة في ذاتها، أم كانت بكرامة من غير مهانة!!!

وأما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ فقيل: إنه معطوف على الناس؛ أي أحرص الناس وأحرص من الذين أشركوا، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ

١ــ مفاتيح الغيب ٣/٦٠٩.

٢ــ الكشاف ١/١٩٤.

٣ــ المصدر نفسه ١/١٩٤.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ راجعًا إلى اليهود بيانا لزيادة حرصهم على الحياة، ووجه ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم، فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغًا في الحرص إلى غاية لا يُقادر قدرها، وإنما بلغوا في الحرص إلى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين؛ لأنه يعلمون بما يحل بهم من العذاب في الآخرة، بخلاف المشركين من العرب ونحوهم فإنهم لا يقرون بذلك.

وقيل: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ كلام مستأنف، والتقدير: ومن الذين أشركوا ناس يود أحدهم، ويكون خروجًا من الكلام في اليهود إلى غيرهم من مشركي العرب على سبيل الاستطراد.

والأول أرجح عندي – والله الموفق– ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم، وفي إظهار كذبهم في قولهم: إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا، وفي بيان خستهم لأنهم يريدون الحياة على أية صفة عزيزة كانت أو ذليلة، أما المشركون من العرب فإنهم لَا يريدونها إلا عزيزة لَا ذلة فيها[1]، وشاعرهم الجاهلي[2] يقول:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

السر في اختصاص المؤمنين بهدايات الكتاب الكريم وبشرياته:

٩- وعن طريق الفنقلة أيضًا يبين الفخرُ سرَّ اختصاص المؤمنين بكون الكتاب هدى وبشرى لهم دون غيرهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ

١ــ يراجع: البحر المحيط ٤٨١/١، وزهرة التفاسير ٣٢٥/١.

٢ــ هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية العبسي ت ٢٢ قبل الهجرة، يراجع: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد بن إبراهيم الهاشمي ٢٦٥/٢، ط: مؤسسة المعارف.

عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة البقرة: ٩٧؛ يقول الفخر:

"**فإن قيل:** ولم خص كونه هدى وبشرى بالمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل؟!

الجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى إنما خصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب، **والثاني:** أنه لا يكون بشرى إلا للمؤمنين، وذلك لأن البشرى عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم، وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين، فلهذا خصهم الله به."[1]

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ سورة الإسراء: ٨٢، وفيه تعريض بكون ضد هذه الصفات حاصلة لغيرهم، وأنه على غيرهم عمى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ سورة فصلت: ٤٤، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سر العدول عن الإفراد إلى الجمع:

١٠- وعن طريق الفنقلة يبين الفخرُ سرَّ جمع الأمنية في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ سورة البقرة: ١١١؛ فيقول:

"**فإن قيل:** لم قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أمنية واحدة؟

١ــ مفاتيح الغيب ٦١٣/٣.

قلنا: أشير بها إلى الأماني المذكورة قبل؛ وهي أمنيتهم ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفارًا، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم؛ أي تلك الأماني الباطلة أمانيهم."[١]

والأماني: جميع أُمنية، وهي ما يُتمنَّى ولا يُدرك، وجمعُها هنا مع أن القول ناطق بأمنية واحدة؛ إما باعتبار صدوره عن جميعهم، وقيل فيه حذفُ مضافٍ؛ أي أمثالُ تلك الأُمنية أمانيُّهم، أو ليدل على تردد الأمنية في نفوسهم وتكررها فيها، أو الجمع لأن أمنيتهم تلك تتضمن أمانيَّ متعددة هي لوازم لها؛ كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم.

وأما ما ذكره الفخر هنا من أن الإشارة إلى الأماني المذكورة قبل فيردُّه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فإن الأمنيات المذكورة قبل ليس مما يُطلب لها البرهانُ، ولا مما يَحتملُ الصِّدق والكذِب[٢]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سرَّ إيثار (ما) على (من):

١١- وعن طريق الفنقلة أيضًا يبين الفخرُ سرَّ إيثار (ما) على (من) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ سورة البقرة: ١١٦؛ فيقول:

"**فإن قيل:** ما الحكمة في أنه تعالى استدل في هذه الآية بكونه مالكًا لما في السموات والأرض؟! قلنا: لأن كلمة (ما) تتناول جميع الأشياء."[٣]

١ــ مفاتيح الغيب ٤/٥.

٢ــ يراجع: إرشاد العقل السليم ١/١٤٧، وروح المعاني ١/٣٥٩، وتفسير المنار ١/٣٥٠.

٣ــ مفاتيح الغيب ٤/٢٣.

و(ما) مِن صِيَغِ العموم تقع على العاقل وغيره وعلى المجموع؛ ولذلك قال سيبويه: "وأما (ما) فإنها مبهمة تقع على كل شيء"[1]، وقيل: تغلب أو تختص بغير العقلاء.

وعليه فالمفسرون يجيبون على نحو هذه الآية بأنها من قبيل التغليب تنزيلا للعقلاء في كونهم من صُنْعِ الله منزلة مساوية لغيرهم من بقية الموجودات؛ تصغيرًا لشأن كل موجود!!!.

ويدل على اندراج من يعقل تحت مدلول (ما) جمع الخبر بجمع المذكر السالم المختص بالعقلاء ﴿ٱلْقَٰنِتُونَ﴾.

فأتى ب (ما) في الأول؛ لأنه إشارة إلى مقام الألوهية، والعقلاء فيه بمنزلة الجمادات، كما أسلفت، ولأن التسخير الطبيعي يستوي فيه العاقل وغيره؛ إلا أنه في غير العاقل أظهر!!

وأتى بجمع العقلاء في الثاني؛ لأنه إشارة إلى مقام العبودية، والجمادات فيه بمنزلة العقلاء؛ لكنه في العقلاء أظهر؛ لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به[2]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

من أسرار التكرير!!!

١٢- ويستخدم الفخرُ الفنقلة في بيان سر تكرير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ سورة البقرة: ١٣٤- سورة البقرة: ١٤١؛ فيقول:

"**فإن قيل:** لم كُررت الآية؟

١ــ الكتاب لسيبويه ٢٢٨/٤.

٢ــ يراجع: البحر المحيط ٥٣٢/١، وروح المعاني ٣٦٧/١، والتحرير والتنوير ٦٨٥/١.

قلنا: عني بالإشارة في الآية **الأولى:** إبراهيم (عليه السلام) ومَن ذُكر معه، وفي **الثانية:** أسلاف اليهود."[1]

وقد اعُترض على هذا بأن أسلاف اليهود والنصارى لم يجر لهم ذِكرٌ هنا، وأجيب عنه بأن القوم لمَّا قالوا في إبراهيم وبنيه: إنهم كانوا هودًا، فكأنهم قالوا: إنهم كانوا على مثل طريقة أسلافنا من اليهود، فصار سلفهم في حكم المذكورين، فجاز التكرار، وأراه تعسفًا.

ولا شك أن الإشارة في الآيتين إلى هذه الجماعة الفاضلة؛ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) وذريتهم الذين اهتدوا بهديهم وقبسوا من نور الله تعالى بوصيتهم؛ بدليل السياق.

وأما سر تكرار الآية فهو المبالغة في التحذير، والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم، وتقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب؛ فالكل مجزي بعمله، ويجوز أن يكون الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا؛ تحذيرًا عن الاقتداء بهم[2]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

<u>بلاغة الكناية:</u>

١٣- وبيَّن الفخرُ أن الرفث في الأصل هو قول الفحش، ثم جُعل ذلك اسمًا لما يُتكلَّم به عند النساء من معاني الإفضاء، ثم جعل كناية عن الجماع وعن كل ما يتبعه، ثم بين مستعملا الفنقلة سر التكنية به عن الجماع في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ سورة البقرة: ١٩٧؛ يقول (رحمه الله):

١ــ مفاتيح الغيب ٧٨/٤.

٢ــ معالم التنزيل ١٥٨/١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ٤١٥/١، وتفسير المنار ٤٠٤/١

"**فإن قيل:** لم كنى ههنا عن الجماع بلفظ الرفث الدال على معنى القبح، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ سورة النساء ٢١، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ سورة النساء: ٤٣، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ سورة البقرة: ٢٢٣؟!

فجوابه أن السبب فيه استهجان ما وُجد منهم قبل الإباحة؛ كما سماه اختياناً لأنفسهم، والله أعلم."[١]

وقد رُوي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن الرفث هنا هو الجماع، ورُوي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه الإفحاش للمرأة بالكلام، كقوله: إذا أحللنا فعلنا بك كذا، وقال قوم: الإفحاش بذكر النساء كان ذلك بحضرتهن أم لا، ويرى آخرون أنه كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من أهله، أو هو التعرض بمعانقة ومواعدة أو مداعبة أو غمز، وقال البعض: هو اللغو من الكلام.[٢]

وأرى – والله الموفق– أن ملخص هذه الأقوال دائرة بين شيء يفسد الحج –وهو الجماع– أو شيء لا يليق لمن كان ملتبسًا به، والحاصل أن الآية الكريمة تنهى هنا نهيًا جازمًا عن كل ما يصرف القلب عن الانقطاع إلى ذكر الله تعالى في الحج، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

<u>سر تخصيص الخطاب بفئة معينة:</u>

١٤- وعن سر تخصيص الخطاب بالعقلاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ﴾ سورة البقرة: ١٩٧، يتحدث الفخر مستعملا الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل:** إذا كان لا يصح إلا خطاب العقلاء فما الفائدة في قوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾؟!

١ــ مفاتيح الغيب ٢٦٩/٥.

٢ــ يراجع: جامع البيان ١٢٥/٤ وما بعدها، ومعالم التنزيل ٢٢٦/١، والكشاف ٢٧٠/١، والبحر المحيط ٩٥/٢.

قلنا: معناه إنكم لمَّا كنتم من أولي الألباب كنتم متمكنين من معرفة هذه الأشياء والعمل بها، فكان وجوبها عليكم أثبت، وإعراضكم عنها أقبح."[1]

ومعنى كلام الفخر أن قضية اللب تقوى الله؛ ولذا فإن الله تعالى خص بالخطاب أولي الألباب، لأنهم هم أهل التمييز بين الحق والباطل، وأهل المعرفة بحقائق الأشياء، ولأنه لا يحذر العواقب إلاَّ مَن كان ذا لبٍّ.

ولم يجعل الله تعالى لغيرهم من أهل الجهل في الخطاب بذلك حظًّا، إذ كانوا أشباحًا كالأنعام، وصورًا كالبهائم، بل هم منها أضل سبيلا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سر العدول عن التعريف إلى التنكير:

١٥- وعن سر التنكير في قول المؤمنين: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ سورة البقرة: ٢٠١، يتحدث الفخر مستعملاً الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل: لو قيل:** آتنا الحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة لكان ذلك متناولاً لكل الأقسام، فلم ترك ذلك وذكره على سبيل التنكير؟!

قلت: الذي أظنه في هذا الموضع والعلم عند الله أنا بينا فيما تقدم أنه ليس للداعي أن يقول: اللهم أعطني كذا وكذا، بل يجب أن يقول: اللهم إن كان كذا وكذا مصلحة لي وموافقًا لقضائك وقدرك فأعطني ذلك، فلو قال: اللهم أعطني الحسنة في الدنيا والآخرة، لكان ذلك جزمًا، وهو غير جائز، أما لمَّا ذكر على سبيل التنكير فقال: أعطني في الدنيا حسنة، كان المراد منه حسنة واحدة، وهي الحسنة التي تكون موافقة لقضائه وقدره ورضاه وحكمه وحكمته، فكان ذلك أقرب إلى رعاية الأدب، والمحافظة على أصول اليقين."[2]

١ــ مفاتيح الغيب ٣٢٢/٥.

٢ــ المصدر نفسه ٣٣٨/٥.

فالحسنة كما ترى جاءت منكرة مطلقة، والمعنى: أنهم سألوا الله في الدنيا الحالة الحسنة، وقد مثل المفسرون ذلك بأنها المرأة الصالحة أو العافية في الصحة وكفاف المال، أو العلم والعبادة، أو الرزق الواسع، أو القناعة بالرزق، أو التوفيق والعصمة، أو الأولاد الأبرار، أو حلاوة الطاعة، أو الفهم في كتاب الله تعالى، أو صحبة الصالحين.

ويرى البعض أن حسنة الآخرة هي الجنة، ويرى آخرون أنها العفو والمغفرة والسلامة من هول الموقف وسوء الحساب، أو مرافقة الأنبياء، أو لذة الرؤية.[١]

ولعل كل ذي قول يطلق الحسنة هنا على ما يشغله ويهمه، والذي يمكن القول به أن حسنة الدنيا هي تُطلق على الحال الحسنة في الدنيا، بحيث يعيش آمنًا مطمئنًا راضيًا معافى، وأما حسنة الآخرة فأن يكون من المرضيِّ عنهم من رب العالمين.

ولم يذكر قسمًا ثالثًا، وهو طالب الآخرة فقط دون الدنيا؛ لأن الإسلام لَا يرضى أن ينسى المسلم حظه من الدنيا؛ ولأن من يطلب الآخرة يطلب الأعمال الحسنة في الدنيا؛ لأنها قنطرة الآخرة، ولأن الإسلام لَا يقر الانقطاع عن طيبات الدنيا لحظ الآخرة؛ لأنه لَا يرضى بتعذيب الجسم لتهذيب الروح كما يزعم الذين يسلكون ذلك المسلك.

ولقد كان أكثر دعاء النبي (ﷺ): "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"[٢]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ يراجع: جامع البيان ٢٠٢/٤ وما بعدها، ومعالم التنزيل ٢٣٢/١، والبحر المحيط ١١٣/٢، وزهرة التفاسير ٦٢٨/٢.

٢ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن أنس رضي اللع عنه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: "**ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**"، حديث رقم ٤٢٥٠.

عداوة الشيطان لبني آدم:

١٦- ويبين الفخر سر وصف الشيطان بالعدو المبين في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ سورة البقرة: ٢٠٨؛ فيقول:

"**فإن قيل:** كيف يمكن وصف الشيطان بأنه مبين مع أنا لا نرى ذاته ولا نسمع كلامه؟!

قلنا: إن الله تعالى لمَّا بيَّن عداوته لآدم ونسله فلذلك الأمر صح أن يوصف بأنه عدو مبين وإن لم يُشاهَد، ومثاله: مَن يُظهر عداوته لرجل في بلد بعيد فقد يصح أن يقال: إن فلانًا عدو مبين لك وإن لم يشاهده في الحال، وعندي فيه وجه آخر، وهو أن الأصل في الإبانة القطع، والبيان إنما سمي بيانًا لهذا المعنى، فإنه يقطع بعض الاحتمالات عن بعض، فوصف الشيطان بأنه مبين معناه أنه يقطع المكلف بوسوسته عن طاعة الله وثوابه ورضوانه.

فإن قيل: كون الشيطان عدوًّا لنا إما أن يكون بسبب أنه يقصد إيصال الآلام والمكاره إلينا في الحال، أو بسبب أنه بوسوسته يمنعنا عن الدين والثواب، والأول باطل؛ إذ لو كان كذلك لأوقعنا في الأمراض والآلام والشدائد، ومعلوم أنه ليس كذلك، وإن كان الثاني فهو أيضًا باطل؛ لأن مَن قَبِل منه تلك الوسوسة فهو الجاني؛ كما قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي ﴾ سورة ابراهيم: ٢٢، وإذا ثبت هذا فكيف يقال: إنه عدو مبين العداوة، والحال ما ذكرناه؟!

والجواب: أنه عدو من الوجهين معًا؛ أما من حيث إنه يحاول إيصال الضرر إلينا فهو كذلك، إلا أن الله تعالى منعه عن ذلك، وليس يلزم من كونه مريدًا لإيصال الضرر إلينا أن يكون قادرًا عليه، وأما من حيث إنه يقدم على الوسوسة، فمعلوم أن تزيين المعاصي وإلقاء الشبهات كل ذلك سبب لوقوع

الإنسان في الباطل، وبه يصير محرومًا عن الثواب، فكان ذلك من أعظم جهات العداوة."[١]

هذا كلام الفخر (رحمه الله)، وهو ظاهر الحسن، وأضيف إليه أن الله تعالى ذكر لنا في عديد من آيات كتابه الكريم معنى هذه العداوة وسببها ومظاهرها؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩، فمعنى العداوة وسببها أنه يأمر بكل ما يسوء في العقبى، وكذلك بكل ما تفاحش ذكره وقبحه، إذ الفاحشة هي أسوأ السوء، وكذا يأمر بقول ما يضاف إلى الله مما لا يجوز عليه.

وقال تعالى أيضًا: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ سورة البقرة: ٢٦٨، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة فاطر: ٦، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بلاغة التذييل!!!

١٧- ويبين الفخر سرَّ التذييل في قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة البقرة: ٢٠٩؛ فيقول:

"**فإن قيل:** أفهذه الآية مشتملة على الوعد كما أنها مشتملة على الوعيد؟!

قلنا: نعم من حيث أتبع كونه عزيزًا بقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾؛ فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء، فكما يحسن من الحكيم إيصال العذاب إلى المسيء، فكذلك يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة."[٢]

١ــ مفاتيح الغيب ٥/٣٥٤.

٢ــ المصدر نفسه ٥/٣٥٥.

وأما كونه تعالى عزيزًا؛ فلقدرته على جميع الممكنات، فصار تقدير الآية: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، فاعلموا أن الله مقتدر عليكم، لا يمنعه مانع عنكم، فلا يفوته ما يريده منكم، وهذا نهاية في الوعيد؛ لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيد بذكر العقاب، وربما قال الوالد لولده: إن عصيتني فأنت عارف بي وأنت تعلم قدرتي عليك وشدة سطوتي، فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره، أفاده الفخر أيضًا.[1]

ورُوي أن قارئًا قرأ (غفور رحيم)، فسمعه أعرابي فأنكره، ولم يكن يقرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه[2]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

مجيء الشر من مورد الخير:

١٨- وبين الفخر عن طريق الفنقلة أيضًا الأسرار البلاغية في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ سورة البقرة: ٢١٠، فقال:

"**فإن قيل:** ولم يأتيهم العذاب في الغمام؟

قلنا: لوجوه: أحدها: أن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يُحتسب كان أهول وأفظع، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أكثر تأثيرًا في السرور، فكيف إذا جاء الشر من حيث يُحتسب الخير، ومن هذا اشتد على المتفكرين في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ سورة الزمر: ٤٧، وثانيها: أن نزول الغمام علامة لظهور ما يكون أشد الأهوال في القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ

١ــ مفاتيح الغيب ٣٥٥/٥.

٢ــ البحر المحيط ١٣٢/٢.

تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ سورة الفرقان: ٢٥-٢٦

فإن قيل: كيف يتعلق به قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؟

قلنا: الوجه فيه أنه تعالى لمَّا حكى عنادهم وتوقفهم في قبول الدين على هذا الشرط الفاسد، ذكر بعده ما يجري مجرى التهديد، والله أعلم بحقيقة كلامه."[1]

وحاصل ما ذكره الفخر أن إتيان الله تعالى في الغمام يعني إتيان عذابه فيه من حيث تُرجى الرحمة بالمطر، وذلك أبلغ في تمثيل هول العذاب وفظاعته؛ لأن الخوف إذا جاء من موضع الأمن كان خطبه أعظم ووقعه أشد؛ كما وقع لعاد قوم هود؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة الأحقاف: ٢٤، وقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ سورة النحل: ٢٦، وقال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ سورة الحشر: ٢، ويجب أن تكون هذه الآيات عبرة للمؤمن تُرَغِّبُهُ في المبادرة إلى التوبة؛ لئلا يفاجئه وعد الله تعالى وهو غافل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بلاغة التقديم والتأخير:

١٩- وعن طريق الفنقلة أيضًا يبين الفخر سر التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ سورة البقرة: ٢١٣؛ فقال:

١ــ مفاتيح الغيب ٥/٣٦٠-٣٦٢.

"**فإن قيل:** لم قال: فهداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، ولم يقل: هداهم للحق فيما اختلفوا، وقدم الاختلاف؟!

فالجواب أنه لما كانت العناية بذكر الاختلاف لهم بدأ به."[١]

فتقديم لفظ الخلاف على لفظ الحق – كما اختاره الفخر– اهتمامًا؛ إذ العناية إنما هي بذكر الاختلاف، ويرى البعض[٢] أن في الكلام قلبًا، وتقديره: فهدى الله الذين آمنوا للحق مما اختلفوا فيه، وربما دعاهم إلى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللفظ أنهم اختلفوا في الحق، فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غَيْر الحق في نفسه.

يقول ابن عطية (رحمه الله): "وادعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة تدفع إلى ذلك عجز وسوء نظر، وذلك أن الكلام يتخرج على وجهه ورصفه؛ لأن قوله ﴿فَهَدَى﴾ يقتضي أنهم أصابوا الحق، وتبين بقوله: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ جنس ما وقع الخلاف فيه."[٣]

وفي الذي اختلفوا فيه أقوال: أحدها: أنه الجمعة جعلها اليهود السبت والنصارى الأحد؛ فقد صح عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فُرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد"[٤]، **والثاني:** أنه الصلاة، فمنهم من يصلي إلى المشرق، ومنهم من يصلي إلى المغرب، **والثالث:** أنه إبراهيم (عليه السلام)، قالت اليهود: كان يهوديًّا، وقالت

١ــ مفاتيح الغيب ٣٧٧/٦.

٢ــ كالفراء، يراجع: المحرر الوجيز ٢٨٦/١.

٣ــ المحرر الوجيز ٢٨٦/١.

٤ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، حدريث رقم ٨٣٦.

النصارى: كان نصرانيًّا، **والرابع:** أنه عيسى (عليه السلام)، جعلته اليهود لفرية، وجعلته النصارى إلهًا، **والخامس:** أنه الكتب آمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، والسادس: أنه الدين."[1]

وآخرها أصحها؛ لدخول جميع الأقوال فيه، "ويدل عليه قراءة عبد الله: لما اختلفوا فيه من الإسلام"[2]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

من أسرار التنكير!!!

٢٠- وعن سر تنكير ﴿قِتَالٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ سورة البقرة: ٢١٧، يبين الفخر ذلك مستعملاً الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل:** لم نكر القتال في قوله تعالى: ﴿قِتَالٌ﴾، ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء بالألف واللام؛ حتى يكون المذكور الثاني هو الأول؛ لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ سورة الشرح: ٦؟!

قلنا: صحيح ما ذكرتم أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثاني غير الأول، والقوم أرادوا بقولهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبد الله بن جحش[3]، فقال تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾،

١ــ يراجع: جامع البيان ٢٨٣/٤، ومعالم التنزيل ٢٤٤/١، وزاد المسير ٢٣٠/١.

٢ــ البحر المحيط ١٤٧/٢.

٣ــ نزلت الآية في أول سرية للإسلام وكان أميرهم عبد الله بن جحش، أغاروا على عير لقريش قافلة من الطائف، وقتلوا عمرو بن الحضرمي آخر يوم من جمادى الآخرة، فاشتبه بأول رجب، فعيرهم أهل مكة باستحلاله، وعن عطاء أنه سُئل عن القتال في الشهر الحرام، فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يُقاتَلوا فيه وما نسخت، وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى: **(فاقتلوا=**

وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبيرًا ليس هو هذا القتال الذي سألتم عنه، بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر، فكيف يكون هذا من الكبائر؟! إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر، فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة؛ إلا أنه تعالى ما صرح بهذا الكلام؛ لئلا تضيق قلوبهم، بل أبهم الكلام بحيث يكون ظاهره كالموهم لما أرادوه، وباطنه يكون موافقًا للحق، وهذا إنما حصل بأن ذكر هذين اللفظين على سبيل التنكير، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة، فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب سر لطيف لا يهتدي إليه إلا أولوا الألباب!!!"[1]

الترابط بين كلمات النص الكريم:

٢١- ويتحدث الفخرُ أيضًا عن سر تعلُّق قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٢٣، بما قبله، ويستعمل الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل:** كيف تعلق هذا الكلام بما قبله؟

قلنا: إن قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ يجري مجرى التنبيه على سبب إباحة الوطء؛ كأنه قيل: هؤلاء النسوان إنما حكم الشرع بإباحة وطئهن لكم لأجل أنهن حرث لكم، أي بسبب أنه يتولد الولد منها، ثم قال بعده: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ

=**المشركين حيث وجدتموهم)** سورة التوبة: ٥؛ إذ عموم الأمكنة عندهم يلزم منه عموم الأزمنة؛، والأصح – والله الموفق- أن الآيات التي وردت بعدها عامة في الأزمنة، وهي خاصة، والعام لا ينسخ الخاص باتفاق؛ يراجع: أسباب النزول للواحدي ٤١/١، ط: مؤسسة الحلبي، ومعالم التنزيل ٢٧٤/١، والكشاف ٢٨٥/١، والبحر المحيط ١٥٤/٢.

١ــ مفاتيح الغيب ٣٨٨/٦.

﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: لمَّا كان السبب في إباحة وطئها لكم حصول الحرث، فأتوا حرثكم، ولا تأتوا غير موضع الحرث، فكان قوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ دليلاً على الإذن في ذلك الموضع والمنع من غير ذلك الموضع، فلمَّا اشتملت الآية على الإذن في أحد الموضعين والمنع عن الموضع الآخر لا جرم قال: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: لا تكونوا في قيد قضاء الشهوة، بل كونوا في قيد تقديم الطاعة، ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والمراد منه ترك المحظورات، ثم أكده ثالثًا بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾، وفيه إشارة إلى أني إنما كلفتكم بتحمل المشقة في فعل الطاعات وترك المحظورات لأجل يوم البعث والنشور والحساب، فلولا ذلك اليوم لكان تحمل المشقة في فعل الطاعات وترك المحظورات عبثًا، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمراد منه رعاية الترتيب المعتبر في القرآن، وهو أن يجعل مع كل وعيد وعدًا، فما أحسن هذا الترتيب!!!"[1]

فكما ترى يرى الفخرُ أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل الخيرات عامة واجتناب المحظورات، وإلى ما ذهب إليه ذهب آخرون ممن سبقوه أو لحقوه من المفسرين[2]، بينما يرى البعض أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ﴾: التسمية عند الجماع، أو طلب الولد[3]، واستدلوا بقوله (ﷺ): "لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان"[4]

١ــ مفاتيح الغيب ٤٢٤/٦.

٢ــ يراجع: جامع البيان ٤١٨/٤، والكشاف ٢٩٤/١، والبحر المحيط ١٨٢/٢.

٣ــ يراجع: معالم التنزيل ٢٦١/١.

٤ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أتى أهله، حديث رقم ٦٠٢٥.

وأرى – والله الموفق – أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾: ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة؛ لأنه يدخل فيه التسمية عند الجماع وطلب الولد المؤمن، ولذلك جاء بعده ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله فيما أُمرتم به ونُهيتم عنه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سر وقوع آية الخُلع بين آيات الطلاق:

٢٢- وعن سر وقوع آية الخُلع بين آيات الطلاق يتحدث الفخر مستعملاً الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل:** ما السبب في إيقاع آية الخلع بين آيات الطلاق؟

قلنا: السبب أن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك، فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة، ثم أتبعه بحكم الخلع، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة؛ لأنها كالخاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب، والله أعلم."[1]

وما ذكره الفخر هنا بديع؛ فالزوجان إن عرض لهما ما يمنعهما في الاستمرار في الحياة الزوجية، فإن كان المانع من قِبَلِ الرجل بأن أبغضها وأحب فراقها وخاف ألا يعاملها بالمعروف، فله أن يسرحها بإحسان؛ لأن عقد الزوجية بيده، وليس له أن يأخذ مما أعطاها شيئًا، وإن كان المانع من قِبَلِهَا كَأَنْ أَبْغَضَتْهُ بُغْضًا لا تستطيع معه القيام بحقوق الزوجية وخافت أن تقع في النشوز، فمن العدل أن تعطيه ما كانت أخذت منه باسم الزوجية بحيث لا يخسر ماله وزوجته معا.

ثم إن المولى تعالى بعد أن بيّن ذلك أتبعه ببيان التسريح الذي لا يملك معه مراجعتها إلا إذا تزوجت بزوج آخر زواجًا صحيحًا، وهذا تَفَنُّنٌ بديع في جمع

١ــ مفاتيح الغيب ٤٤٨/٦.

التشريعات والخطاب للأمة؛ ليأخذ منه كُلُّ أفرادها ما يختص به، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

جريان الكلام على طريق الاستفهام:

٢٣- وعن سر جريان الكلام على طريق الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ سورة البقرة: ٢٤٥، يتحدث الفخر مستعملا الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل:** فما معنى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؟!

قلنا: إن ذلك في الترغيب في الدعاء إلى الفعل أقرب من ظاهر الأمر."[١]

وكلام الفخر هنا بديع؛ إذ خطاب الناس بما يفهمونه وتقريب الأمر لهم يكون أشد تأثيرًا في نفوسهم؛ "فإقراضُ الله تعالى مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل طلبًا للثواب الآجل، والمراد ههنا إما الجهادُ الذي هو عبارةٌ عن بذل النفسِ والمالِ في سبيل الله (ﷻ) ابتغاءً لمرضاته وإما مطلقُ العملِ الصالحِ المنتظمُ له انتظامًا أوليًّا"[٢].

يقول الأستاذ الإمام: "هذه العبارة أبلغ من الأمر المجرد؛ وسر اختيارها أن الداعية إلى البذل في المصالح العامة ضعيفة في نفوس الأكثرين، وحسبك أنه تعالى جعل البذل بمثابة الإقراض له – وهو الغني عن العالمين- ثم إنه عَبَّرَ عن طَلَبِهِ بهذا الضرب من الاستفهام الْمُسْتَعْمَلِ للإكبار والاستعظام؛ فإنه إنما يقال: مَنْ ذا الذي يفعل كذا؟ في الأمر الذي يندر أن يقدم عليه أحد، ومنه قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ سورة

١ــ مفاتيح الغيب ٦/٥٠٠.

٢ــ البحر المحيط ٢/٢٦١.

الأحزاب: ١٧، ولا يقال: من ذا الذي يشرب هذه الكأس االْمَنْلُوجَةَ وهجير الصيف مُتَّقِد؟ ثم إنه تعالى لم يكتف بتسميته إقراضًا، وبالتعبير عنه بالاستفهام حتى قال: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾؛ ذلك أن الإقراض هو أن تعطي إنسانًا شيئًا من المال على أن يرد إليك مثله، وليس هذا بكاف في الترغيب الذي تقتضيه الحال هنا، فصرّح بأنه لا يرد مثله، بل أضعاف أضعافه من غير تحديد!!!"[١]

سر تقديم الملك على الحكمة مع دونيته عنها:

٢٤- وعن الأسرار البلاغية في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ سورة البقرة: ٢٥١، يتحدث الفخرُ مستعملاً الفنقلة، فيقول:

"**فإن قيل:** فإذا كان المراد من الحكمة هنا: النبوة، فلم قدم الملك على الحكمة مع أن الملك أدون حالاً من النبوة؟!

قلنا: لأن الله تعالى بين في هذه الآية كيفية ترقِّي داود (عليه السلام) إلى المراتب العالية، وإذا تكلم المتكلم في كيفية الترقي فكل ما كان أكثر تأخرًا في الذكر كان أعلى حالاً وأعظم رتبة.

فإن قيل: إنه تعالى لما ذكر أنه آتاه الحكمة، وكان المراد بالحكمة النبوة، فقد دخل العلم في ذلك، فلم ذكر بعده: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ ؟!

قلنا: المقصود منه التنبيه على أن العبد لا ينتهي إلى حالة يستغني فيها عن التعلم، كان نبيًّا أو لم يكن، ولهذا السبب قال لسيدنا محمد (ﷺ): ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ سورة طه: ١١٤"[٢].

١ــ تفسير المنار ٣٦٦/٢.

٢ــ مفاتيح الغيب ٥١٧/٦.

فكما ترى ذهب الفخرُ إلى أن المراد بالحكمة: النبوة، وقد ذهب إليه الجمهور أيضًا[1]، ويمكن حمل الحكمة على العلم والعمل به، ووضع الأمور في مواضعها، والتدبير المحكم على وفق العلم-كما هو معناها في اللغة- وتدخل فيها النبوة دخولاً أوليًّا؛ إذ كمال الحكمة يكون بالنبوّة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ فحمله البعض على ما علَّمه اللهُ إياه من صنعة الدروع وكلام الطير والدواب والصوت الطيب وغير ذلك[2]، ولقد ذكر سبحانه أنه علَّمه مما يشاء مشيرًا بهذا إلى سعة العلم وتشعبه من سياسة الناس وطبائع البلدان.

والخلاصة: أن الله أجرى على داوود توفيقه ووهبه قوة في النفس والجسم، وحكمة وسعة علم، بحيث يستطيع سياسة البلاد والعباد بما يصلحهم في المعاش والمعاد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أسرار بلاغية!!!

٢٥- واستعمل الفخر الفنقلة للحديث عن الأسرار البلاغية في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ سورة البقرة: ٢٥٣، فقال:

"**فإن قيل:** لم قال: ﴿ٱلرُّسُلُ تِلْكَ﴾، ولم يقل: (هذه) مع أن تلك يشار بها إلى غائب لا إلى حاضر؟

قلنا: هذه القصص لمَّا ذُكرت صارت بعد ذكرها كالشيء الذي انقضى ومضى، فكانت في حكم الغائب، فلهذا التأويل قال: ﴿تِلْكَ﴾.

١ــ يراجع: جامع البيان ٣٧١/٥، ومعالم التنزيل ٣٠٧/١، والكشاف ٣٢٤/١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ٨٤٨/١.

٢ــ يراجع: الكشاف ٣٢٤/١، والبحر المحيط ٢٧٨/٢.

فإن قيل: المفهوم من قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو المفهوم من قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم﴾، فما الفائدة في التكرير؟

والجواب أن قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يدل على إثبات تفضيل البعض على البعض، فأما أن يدل على أن ذلك التفضيل حصل بدرجات كثيرة أو بدرجات قليلة فليس فيه دلالة عليه، فكان قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ فيه فائدة زائدة، فلم يكن تكريرًا."[1]

هذا كلام الفخر (رحمه الله)، وأزيد عليه الآتي:

أما عن الفنقلة الأولى: فلقد ذكر بعض المفسرين أنه أشار بـــ (تلك) التي للبعيد؛ لبُعد ما بينهم وبين النبي (ﷺ) من الأزمان، أو للإيذانِ بعلوِّ طبقتِهم وبُعدِ منزلتهم أجمعين، وأنهم المصطفون الاخيار، وأنهم مهما تتفاوت منازلهم في رسالاتهم، هم جميعًا ليسوا كسائر الناس، فلهم شرف البعث والرسالة والاصطفاء.[2]

وأما عن الفنقلة الثانية: فالظاهرُ أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾: رسول الله (ﷺ)؛ فإنه قد خُصَّ بالدعوة العامة، والحُجج الجمة، والمعجزاتِ المستمرة، والآياتِ المتعاقبة بتعاقُب الدهور، والفضائلِ العلمية والعمليةِ الفائتة للحصر، والإبهامُ لتفخيم شأنه، وللإشعار بأنه العلَمُ الفردُ الغنيُّ عن التعيين؛ فيكون المعنى: أي: ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان – بعد تفاوتهم في الفضل– أفضل منهم بدرجات كثيرة.

والسر في تخصيص من كلمه الله وعيسى من بين الأنبياء؛ لما أوتيا من الآيات العظيمة، والمعجزات الباهرة، ولأن آيتيهما موجودتان، فتخصيصهما

١ــ مفاتيح الغيب ٥٢٠/٦.

٢ــ يراجع: البحر المحيط ٢٨٢/٢، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢٤٦/١.

بالذكر طعن على تابعيهما، حيث لم ينقادوا لهذين الرسولين العظيمين، ووقع منهم المنازعة والخلاف.[1]

من أسرار الواو في القرآن الكريم:

٢٦- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة البقرة: ٢٥٩، يستخدم الفنقلة لبيان سر الواو في قوله تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾، فيقول:

"**فإن قيل:** ما فائدة الواو في قوله تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾؟

قلنا: لأنه لو قال: وانظر إلى حمارك لنجعلك آية، كان النظر إلى الحمار شرطًا، وجعله آية جزاء، وهذا المعنى غير مطلوب من هذا الكلام، أما لما قال: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ كان المعنى: ولنجعلك آية فعلنا ما فعلنا من الإماتة والإحياء."[2]

وكلام الفخر يعني أن معنى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾، أي: فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله (ﷻ) في نفسك وطعامك وشرابك وحمارك، أَمَّا كَوْنُ ما رأى له آية فظاهر، وَأَمَّا كَوْنُهُ آية للناس: فهو أن عِلْمَهُمْ بموته مائة سنة ثم بحياته بعد ذلك

١ــ يراجع: الكشاف ٣٢٤/١، والمحرر الوجيز ٣٣٨/١، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢٤٧/١.

٢ــ مفاتيح الغيب ٣٢/٧.

من أكبر الآيات، لكي يؤمن بالبعث والنشور من لَا يؤمن، ولكي يدرك عظمة الله في الخلق والتكوين من لم يدركها.[1]

وعلى ذلك فالواو في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ للعطف على نتائج الكلام السامي الذي سبقها، لأن نتيجته أن تطمئن وتدرك، وهذا من لطائف إيجاز القرآن، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ سورة الأنعام: ٧٥، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ يراجع: البحر المحيط ٣٠٥/٢، وتفسير المنار ٤٣/٣، وزهرة التفاسير ٩٦٣/٢.

المبحث الثالث

(تعليل الأحكام القرآنية وبيان حِكَمِهَا)

لا خلاف في أن أفعال الله تعالى وأحكامه ناشئتان عن إرادته تعالى واختياره، وعلى وفق علمه، وجميعها يشتمل على حِكَمٍ ومصالح، وتلك الحكم هي ثمرات لأفعاله تعالى ناشئة عن حصول الفعل؛ هذا هو القدر المتفق عليه بين العلماء، وإنما الخلاف في أنها أتعلل بعلل وأغراض أو لا؟

وقد ذهب المعتزلة إلى أنها توصف بذلك، بل رتّبوا على ذلك وجوب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى، وحجتهم أن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لحكمة وغرض، والفعل من غير غرض سفه وعبث، والحكيم من يفعل أحد أمرين إما أن ينتفع أو ينفع غيره، ولمّا تقدّس الرب تعالى عن الانتفاع، تعيّن أنه إنما يفعل لينفع غيره.[١]

وأما أهل السنة فيرون أن أفعال الله تعالى وأحكامه غير معللة بالأغراض؛ لأن ثبوت الغرض للفاعل من فعلٍ يستلزم استكماله بغيره، وثبوت علة لفعله يستلزم نقصانه في فاعليته، وليس يلزم من القول بأن أفعال الله تعالى غير معللة بالأغراض عبث في أفعاله تعالى؛ لأنها مشتملة على حكم ومصالح لا تُحصى؛ إلا أنها ليست عللاً لأفعاله ولا أغراضًا له.[٢]

وقد استعمل الفخرُ الفنقلةَ لبيان ما حوته الآيات القرآنية من أحكام وحِكَمٍ، ومن ذلك:

١ــ يراجع: شرح الأصول الخمسة ٥٠٦-٥٠٧.

٢ــ يراجع: مفاتيح الغيب ٤/٨١.

فائدة تسوير القرآن الكريم:

١- عند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٣، يقول:

"**فإن قيل:** ما فائدة تقطيع القرآن سورًا؟

قلنا: من وجوه: أحدها: ما لأجله بوَّب المصنفون كتبهم أبوابًا وفصولاً، وثانيها: أن الجنس إذا حصل تحته أنواع كان إفراد كل نوع عن صاحبه أحسن، وثالثها: أن القارىء إذا ختم سورة أو بابًا من الكتاب، ثم أخذ في آخر، كان أنشط له وأثبت على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا علم أنه قطع ميلاً نفَّس ذلك عنه ونشَّطه للسير، ورابعها: أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، فيجل في نفسه ذلك ويغتبط به، ومن هنا كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل."[١]

وهذا مما أفاده الفخرُ من الزمخشري، ومما زاده الزمخشري أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تُلاحَظ المعاني ويتجاوب النظم.[٢]

والسورة: الطائفة من القرآن العظيم، وأقلها ثلاثُ آيات، وواوُها أصليةٌ منقولةٌ من سُور البلد؛ لأنها محيطةٌ بطائفةٍ من القرآن أو محتوية على فنون رائقةٍ من العلوم احتواءَ سور المدينة على ما فيها، أو من السَّوْرة التي هي الرتبة؛ فإن سور القرآن رُتبٌ من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطول

١ــ مفاتيح الغيب ٣٤٩/٢.

٢ــ الكشاف ١٢٨/١.

والقِصَر، أو هي من حيث انتظامها مع أخواتها في المصحف مراتب يرتقى إليها القارئ شيئًا فشيئا.[١]

حكمة تعيين القبلة وتحويلها:

٢- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ سورة البقرة: ١٤٤، يقول:

"**فإن قيل:** ما الحكمة أولاً في تعيين القبلة، ثم ما الحكمة في تحويل القبلة من جهة إلى جهة؟

قلنا: في ذلك خلاف الشديد بين أهل السنة والمعتزلة؛ أما أهل السنة فإنهم يقولون: لا يجب تعليل أحكام الله تعالى ألبتة، وإذا كان كذلك كانت فاعليته بمحض الإلهية والقدرة والنفاذ والاستيلاء، وأما المعتزلة فقد قالوا: لمَّا دلت الدلائل على أنه تعالى حكيم، والحكيم لا يجوز أن تكون أفعاله خالية عن الأغراض، علمنا أن له سبحانه في كل أفعاله وأحكامه حكمًا، ثم إنها تارة تكون ظاهرة جلية لنا، وتارة مستورة خفية عنا، وتحويل القبلة من جهة إلى جهة أخرى يمكن أن يكون لمصالح خفية وأسرار مطوية عنا."[٢]

وَأَمْرُ القبلة أولُّ ما نُسخ من أمور الشرع، وذلك أن رسول الله (ﷺ) "لمَّا قدم المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر – أو سبعة عشر– شهرًا، وكان يحب أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية."[٣]

١ــ يراجع: الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ١٨٦/١، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب–١٩٧٤م، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، وإرشاد العقل السليم ٦٥/١.

٢ــ مفاتيح الغيب ٨١/٤.

٣ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن البراء بن عازب (رضي الله عنه)، كتاب التمني، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق، حديث رقم ٦٨٢٥.

وكان (ﷺ) يحب ذلك؛ لقول اليهود: يُخَالِفُنَا محمد (ﷺ) في ديننا ويتبع قبلتنا، ولأن الكعبة قبلة أبيه إبراهيم (عليه السلام)، وأدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم.[1]

وتلك حِكَمٌ نصّ المفسرون على ذكرها، ويرى أبو حيان أنهم أكثروا الكلام في ذلك بأشياء لا يقوم على صحتها دليل، وعللوه بعلل لم يشر إليها الشرع، ولا قاد نحوها العقل، وقال: ومن طلب للوضعيات تعاليل فأحرى بأن يقل صوابه ويكثر خطؤه، وأما ما نص الشرع على حكمته، أو أشار، أو قاد إليه النظر الصحيح، فهو الذي لا معدل عنه، ولا استفادة إلا منه.[2]

وكلامه صحيح جملة، وأما هنا فالحكم ظاهرة جلية لا تخفى على مثله (رحمه الله)، ولذا أقول: لعله يقصد الإفراط في تتبع العلل في موارد الشرع عامة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حكمة المنع من الزواج بالمشركين:

٣- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ سورة البقرة: ٢٢١، يقول:

"**فإن قيل:** فكيف يدعون إلى النار وربما لم يؤمنوا بالنار أصلاً؟!

وجوابه: أنهم يدعون إلى ما يؤدي إلى النار؛ فإن الظاهر أن الزوجية مظنة الألفة والمحبة والمودة، وكل ذلك يوجب الموافقة في المطالب والأغراض، وربما يؤدي ذلك إلى انتقال المسلم عن الإسلام بسبب موافقة حبيبه.

١ــ يراجع: المحرر الوجيز ٢٢١/١، وإرشاد العقل السليم ١٧٤/١.

٢ــ البحر المحيط ٥٩٤/١.

فإن قيل: احتمال المحبة حاصل من الجانبين، فكما يحتمل أن يصير المسلم كافرًا بسبب الألفة والمحبة، يحتمل أيضًا أن يصير الكافر مسلمًا بسبب الألفة والمحبة، وإذا تعارض الاحتمالان وجب أن يتساقطا، فيبقى أصل الجواز.

قلنا: إن الرجحان لهذا الجانب؛ لأنه بتقدير أن ينتقل الكافر عن كفره فإنه يستوجب المسلم به مزيد ثواب ودرجة، وبتقدير أن ينتقل المسلم عن إسلامه فإنه يستوجب العقوبة العظيمة، فالإقدام على هذا العمل دائر بين أن يلحقه مزيد نفع وبين أن يلحقه ضرر عظيم، وفي مثل هذه الصورة يجب الاحتراز عن الضرر، فلهذا السبب رجح الله تعالى جانب المنع على جانب الإطلاق."[1]

وحاصل كلام الفخر أنّ صحبة المشركين والمشركات ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثير من هواهم؛ لما هم عليه من الالتباس بالمحرمات، والانغماس في القاذورات، وربما يدعون إلى ترك المجاهدة والقتال، أو يدعون الولد الذي يحدث إلى الكفر، فيوافق، فيكون من أهل النار، فهذا كله دعاء إلى النار!!!

فالمشركة وَإِنْ كانت فائقة في الجمال والمال والنسب، فالأمة المؤمنة خير منها؛ لأن ما فاقت به المشركة يتعلق بالدنيا، والإيمان يتعلق بالآخرة، والآخرة خير من الدنيا، فبالتوافق في الدين تَكْمُلُ الْمَحَبَّةُ ومنافع الدنيا من الصحبة والطاعة، وَحِفْظِ الأموال والأولاد.

يقول الشيخ أبو زهرة:

"**وقد يقول قائل:** هذه الدعوة إلى النار بهذا التأثير قد تكون أيضا في زواج المسلم بالكتابية، كما هي في زواج المسلم بالمشركة؛ فإنها إن كانت ذات جمال ومنصب في قومها، ولها استهواء خاص، قد تدعو إلى النار كما تدعو

١ــ مفاتيح الغيب ٤١٣/٦.

المشركة، وتحل الخلق الديني في نفس المسلم كما تحله المشركة؛ وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقًا كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقا؛ ولذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتابية؛ ولكن الجمهور لَا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحِل، ولا يعملون العلة ليهمل النص؛ بل يرون أن علة التحريم لَا تتوافر في الكتابية توافرها في المشركة؛ فإن المشركة لَا ترتبط بأي قانون خلقي يعصمها من الزلل، ويجعل الزوج يربطها به؛ أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية من الصدق والأمانة، ومنع الخيانة، وحسن المعاملة وحسن العشرة، وغيرها من المبادئ الفاضلة لَا تزال باقية في تعاليم دينها؛ فيمكن الاحتكام إليها، كما يمكن الاطمئنان إلى أن الزوجة تستمسك بالفضيلة في الجملة إن أحسن الاختيار.

وإن القرآن الكريم في جدله مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ سورة آل عمران: ٦٤، وكما أمر الله سبحانه المسلمين عامة بألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالرفق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ سورة العنكبوت: ٤٦، فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة المقربة غير المبعدة أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات.

بيد أنه يلاحظ في إباحة الزواج من الكتابيات أمران:

الأمر الأول: أن النص القرآني المبيح خاص بالمحصنات منهن، إذ قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ سورة المائدة: ٥، والمحصنات في أظهر التفسير هن العفيفات؛ فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن في أخلاقهن وعقولهن-ولا يتخيرون- خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب؛ لأن الله أحل المحصنات، وهم استحلوا المنحرفات.

الأمر الثاني: أن ولي الأمر إذا رأى خطرًا على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامي له أن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه؛ سدًّا للذريعة ومنعًا للشر؛ وذلك من باب السياسة الشرعية، لَا من باب تحريم ما أحل الله؛ لأن الحل قائم على أصله، والمنع وارد على الضرر الذي يلحق المسلمين، إذ في ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه؛ كما أن أصل الأكل حلال؛ ولكن اغتصاب أموال الناس لنأكلها حرام؛ للاعتداء فيه؛ ولذلك سارت الدولة على منع رجال السلك السياسي من الزواج من الأجنبيات."[1]

وكلامه (رحمه الله) بديع يبين أن الله سبحانه بأوامره السامية وشريعته المحكمة ينادي المؤمنين إلى أن يحصنوا نفوسهم في زواجهم بما يحميها من الشر والفساد، وبواعثهما، وما يغري بهما، ويحموا جماعتهم من أن تكون فيها تلك الأدواء الفتاكة بقيام أسر من أزواج قد انحلت في نفوسهم روابط الفضيلة والأخلاق، فإن ذلك التحصين الشخصي والاجتماعي هو السبيل إلى جنة الرضوان، كما أنه السبيل إلى مغفرة الرحمن؛ لأن صون النفوس وعفة القلوب، وسيادة الفضيلة في المجتمع، كل هذا من شأنه أن يوجه إلى الخير وإلى الكمال، فتذهب عن النفس أدرانها، وتستر عيوبها؛ وبذلك يغفر الله ذنوبها إذا تابت وأقلعت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حكمة النهي عن الإكثار من الحلف:

٤- بين الفخرُ عن طريق الفنقلة الحكمة من هذا وأثره في حصول البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فقال عند تفسير قوله تعالى:﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة: ٢٢٤.

١ــ زهرة التفاسير ٢/٧٢٥-٧٢٦.

"**فإن قيل:** وكيف يلزم من ترك الحلف حصول البر والتقوى والإصلاح بين الناس؟!

قلنا: لأن من ترك الحلف لاعتقاده أن الله تعالى أجل وأعظم أن يستشهد باسمه العظيم في خسائس مطالب الدنيا، فلا شك أن هذا من أعظم أبواب البر، وأما معنى التقوى: فظاهر أنه اتقى أن يصدر منه ما يخل بتعظيم الله، وأما الإصلاح بين الناس: فمتى اعتقدوا في صدق لهجته وبعده عن الأغراض الفاسدة قبلوا قوله، فيحصل الصلح بتوسطه."[1]

والمعنى الذي ذهب إليه الفخر مبني على أن العُرضة: هي ما يُنصَب ليعرض له الشيء، وأن الآية في ترك الإكثار من الحلف بالله تعالى، وأن من يُتقى ويُحذر فإنه تجب صيانة اسمه وتنزيهه عما لا يليق مِنْ كَوْنِهِ يُذْكَرُ في كل ما يُحْلَفُ عليه من قليل أو كثير، عظيم أو حقير؛ لأن كَثْرَةَ ذلك تُوجِبُ عدم الاكتراث بالمحلوف به، ولا تُبقي لليمين وقْعًا في قلبه، ولا يُؤمن من إقدامه على اليمين الكاذبة، وقد ذمَّه الله تعالى أشدَّ الذم فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ سورة القلم: ١٠.

بينما يرى بعض المفسرين أن العُرضة عبارة عن المانع، والدليل على صحة هذا اللغة؛ حيث يقال: أردت أن أفعل كذا فعرض لي كذا؛ أي اعترض فمنعني، واشتقاقها من الشيء الذي يوضع في عرض الطريق، فيصير مانعًا للناس من السلوك والمرور، فالعُرضة فُعلة بمعنى المفعول كالقبضة، فتكون اسمًا لما يُجعل مانعًا دون الشيء، وتقدير الآية: ولا تجعلوا الحلف بالله مانعًا من أن تبروا أو في أن تبروا، فأسقط حرف الجر لعدم الحاجة إليه بسبب ظهوره، وقد كان الرجل يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم أو إصلاح

١ــ مفاتيح الغيب ٦/٤٢٥.

ذات البين، ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه.(١)

والأصح أن المراد هنا بالأيمان: الأقسام، لا الْمُقْسَمُ عليه، ولا حاجة إلى الخروج عن هذا الظاهر؛ وأيضًا ففي الثاني حذف لا دليل عليه، وهو خلاف الأصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سر إباحة التعريض بالخطبة في الحال وعَقْد القلب عليها والتصريح بها في المسقبل:

٤- بين الفخرُ عن طريق الفنقلة أنه لا حرج في التعريض بالخطبة للمرأة في عدة الوفاة ولا فيما يضمره الرجل من الرغبة فيها، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ سورة البقرة: ٢٣٥:

"**فإن قيل:** إن التعريض بالخطبة أعظم حالاً من أن يميل قلبه إليها ولا يذكر شيئًا، فلمَّا قدَّم جواز التعريض بالخطبة كان قوله بعد ذلك: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ جاريًا مجرى إيضاح الواضحات؟

قلنا: ليس المراد ما ذكرتم، بل المراد منه أنه أباح التعريض، وحرم التصريح في الحال، ثم قال: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، والمراد أنه يعقد قلبه على أنه سيصرح بذلك في المستقبل، فالجملتان مختلفتان، ثم إنه تعالى ذكر الوجه الذي لأجله أباح ذلك فقال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾؛ لأن شهوة النفس إذا حصلت في باب النكاح لا يكاد يخلو ذلك المشتهي من العزم والتمني، فلمَّا كان

١ــ يراجع: جامع البيان ٤١٩/٤، ومعالم التنزيل ٢٩٤/١، والكشاف ٢٦٧/١، والمحرر الوجيز ٣٠٠/١.

دفْع هذا الخاطر كالشيء الشاق، أسقط تعالى عنه هذا الحرج، وأباح له ذلك."[1]

والتعريض أن تذكر شيئًا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلِّم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم، وأما الكناية فهي أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له؛ كقولك: كثير الرماد، للمضياف.

والمراد بالنساء هنا: المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة، ومن غرضي أن أتزوج، وعسى الله أن ييسر لي زوجة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها؛ حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك أو أتزوجك أو أخطبك.

وجملة القول أن الذي رخّص الله فيه هو التعريض الذي لا ينكر الناس مثله في حضرتهن، أو أن يعقد قلبه على أنه سيصرّح بذلك في المستقبل بعد انقضاء العدة، فأباح الله التعريض وحرم التصريح في الحال، وأباح عقد القلب على التصريح في المستقبل، وقد أَوْضَحَ الأمر وسلك فيه مسلك الإطناب؛ لأن الناس يتساهلون في مثل هذه الأمور؛ لِمَا لهم من دافع الهوى إليها؛ ولذلك صرح بما فُهم من سابق القول[2]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

<u>الحكمة في إخفاء الصدقة وإظهارها:</u>

٥- بين الفخرُ عن طريق الفنقلة أن إعطاء الصدقة حال الإخفاء طاعة من جملة الطاعات، وأن إظهار الصدقة أيضًا لا يمتنع، بل قد يكون أفضل إذا علم الإنسان أنه إذا أظهرها صار ذلك سببًا لاقتداء الخلق به في إعطاء الصدقات،

١ــ مفاتيح الغيب ٤٧١/٦.

٢ــ يراجع: الكشاف ٣١٠/١، والمحرر الوجيز ٣١٥/١، والبحر المحيط ٢٣٦/٢، وتفسير المنار ٣٣٨/٢.

فينتفع الفقراء بها، يقول الفخر عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ سورة البقرة: ٢٧١.

"**فإن قيل:** فلم رجَّح الإخفاء على الإظهار في قوله: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؟

فالجواب من وجهين: الأول: لا نسلم أن قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ يفيد الترجيح؛ فإنه يحتمل أن يكون المعنى أن إعطاء الصدقة حال الإخفاء خير من الخيرات، فيكون المراد منه بيان كونه في نفسه خيرًا وطاعة، لا أن المقصود منه بيان الترجيح، **والوجه الثاني:** سلمنا أن المراد منه الترجيح، لكن المراد من الآية أنه إذا كانت الحال واحدة في الإبداء والإخفاء فالأفضل هو الإخفاء، فأما إذا حصل في الإبداء أمر آخر لم يبعد ترجيح الإبداء على الإخفاء."[1]

والحاصل أن الآية في صدقة التطوع – وهو قول الجمهور– وقيل: في الزكاة المفروضة، وقيل: في كليهما، والأرجح الأول؛ لأن الأفضل في الفرائض أن يُجهَر بها، لأنها شعائر لا ينبغي إخفاؤها، وبالتالي دخول الرياء فيها أقل، وحتى لا يُظن بالشخص الامتناع عنها؛ فيساء به الظن، وأما إذا كان المزكى ممن لا يُعرف باليسار فربما كان اخفاؤه أفضل.

وأما صدقة التطوع فقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الأفضل في إعطائها إخفاؤها؛ للبعد عن الرياء والسمعة، ولأنه إذا أخفى صدقته لم يحصل له بين الناس شهرة ومدح وتعظيم، فيشق على النفس، فيكون أكثر ثوابًا، وفي الحديث المشهور: "سبعة يظلهم الله تعالى يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛

١ــ مفاتيح الغيب ٦٣/٧.

أحدهم: رجل تصدق بصدقة، فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه"[1]، ولأن الإظهار يوجب إلحاق الضرر بالآخذ من هتك عرضه وإظهار فقره وذله، والإخفاء لا يتضمن ذلك، فوجب أن يكون الإخفاء أولى.

وأما الوجه في جواز إظهار الصدقة: فهو أن الإنسان إذا علم أنه إذا أظهرها، صار ذلك سببًا لاقتداء الخلق به في إعطاء الصدقات، فينتفع الفقراء بها، فلا يمتنع والحال هذه أن يكون الإظهار أفضل، ألا ترى أن الله تعالى أثنى على قوم في تنزيله، وسماهم عباد الرحمن، ثم ذكر من الخصال التي طلبوها بالدعاء أن قالوا: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ سورة الفرقان: ٧٤[2]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحكمة في تحريم الربا:

٥- وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ سورة البقرة: ٢٧٥، يبين الفخرُ عن طريق الفنقلة الجكمة من تحريم الربا؛ فيقول:

"**فإن قيل:** لم لا يجوز أن يكون لبقاء رأس المال في يد المديون مدة مديدة عوض؛ لأن رأس المال لو بقي في يد المالك هذه المدة لكان يمكن له أن يتجر فيه، ويستفيد بسبب تلك التجارة ربحًا، فلمَّا تركه في يد المديون وانتفع به المديون لم يبعد أن يدفع إلى رب المال ذلك الزائد عوضًا عن انتفاعه بماله؟

قلنا: إن هذا الانتفاع أمر موهوم قد يحصل وقد لا يحصل، وأخذ الدرهم الزائد أمر متيقن، فتفويت المتيقن لأجل الأمر الموهوم لا ينفك عن نوع ضرر.

١ــ رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة (ﷺ)عنه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، حديث رقم ١٣٥٧.

٢ــ يراجع: جامع البيان ٥٨٢/٥ وما بعدها، ومعالم التنزيل ٣٣٥/١-٣٣٦، والكشاف ٣٤٣/١، والمحرر الوجيز ٣٦٥/١، ومفاتيح الغيب ٦٣/٧.

وإنما حرم الله تعالى الربا من حيث إنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد، خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات."[١]

ومن وجوه تحريم الربا أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس؛ لأن احاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

ويفضي الربا إلى العداوة بين الناس؛ لأن المرابي يكون عدوا للمحتاجين، وقد تفضي العداوة إلى مضرات ومفاسد وعدوان على الأنفس والأموال!!!

وقد يصيب الربا المرابيَ بالوساوس، ويشغله المال عن الطعام والشراب والأهل والولد، فيُقَصِّرَ في حق نفسه وحقهم تقصيرا يُفضي إلى الخسران[٢]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ مفاتيح الغيب ٧/٧٤.

٢ــ مفاتيح الغيب ٧/٧٤، وتفسير المنار ٣/٨٤.

المبحث الرابع

(دفع الشبه وتوهم غير المراد)

وظف الفخرُ الفنقلةَ أيضًا لدفع توهم غير المراد من الآيات القرآنية مستعملاً الدلالات اللغوية والبلاغية والمنطقية، واستطاع بفضل هذا أن يلج أبوابًا مختلفة الفنون؛ ليوقف القارئ على المعنى المراد ومراتب حسنه، وليدحض أباطيل الذين يتوهمون غير المراد من ظواهر الآيات، ثم يتبجحون ويثيرون الشبهات!!!

وإليك بيان ذلك من خلال تفسير الفخر لسورة البقرة، والله الموفق والهادي للصواب.

هل كلام المنافق نور؟!

١- عند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ سورة البقرة: ١٧، يستعمل الفنقلة في دفع المعنى الذي قد يُتوهم من ظاهر الآية الكريمة، فيقول:

"**فإن قيل:** وكيف صار ما يظهره المنافق من كلمة الإيمان مثلاً بالنور وهو حين تكلم بها أضمر خلافها؟

قلنا: إنه لو ضم إلى القول اعتقادًا له وعملاً به لأتم النور لنفسه، ولكنه لمَّا لم يفعل لم يتم نوره، وإنما سمى مجرد ذلك القول نورًا؛ لأنه قول حق في نفسه."[١]

وخلاصة ما سطره المفسرون في جهة المماثلة بين المنافقين وصاحب هذا المثل كما يلي:

١ــ مفاتيح الغيب ٢/٣١٢.

– أن مستوقد النار يدفع بها الأذى، فإذا انطفأت عنه وصل الأذى إليه، كذلك المنافق يحقن دمه بالإسلام ويبيحه بكفره وكيده وحربه للمسلمين.

– أنه إذا لم يمدها بالحطب ذهب ضوؤها، كذا المنافق إذا لم يستدم الإيمان ذهب نوره.

– إن المنافقين كانوا عند رسول الله (ﷺ) والمؤمنين في منزلة بما أظهروه، فلما فضحهم الله وأعلم بنفاقهم سقطت المنزلة، فكان ذلك كله بمنزلة النار وانطفائها.

– أن المستضيء بها نوره من جهة غيره لا من جهة نفسه، فإذا ذهبت النار بقي في ظلمة، كذلك المنافق لمَّا أقر بلسانه من غير اعتقاد قلبه كان نور إيمانه كالمستعار.

– أن الله شبه إقبالهم على المسلمين بالإضاءة وعلى المشركين بالذهاب.

–.المنافق أظهر الإسلام، فحقن به دمه، ومشى في حرمته وضيائه، ثم يُسلَب ذلك في الآخرة عند حاجته إليه[1]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

هل خلْق مَن قبلنا يقتضي وجوب العبادة علينا؟!

٢– عند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة: ٢١، يستعين بالفنقلة لدفع ما قد يُتوهَم من ظاهر الآية الكريمة، فيقول:

"**فإن قيل:** فما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، وخَلْق الله مَن قبلهم لا يقتضي وجوب العبادة عليهم؟

١ــ يراجع: جامع البيان ٣٢٥/١، والكشاف ١١٢/١، والمحرر الوجيز ١٠٠/١، والبحر المحيط ٢٠٩/١.

قلنا: الجواب من وجهين: الأول: إن الأمر وإن كان على ما ذكرت، ولكن علمهم بأن الله تعالى خلقهم كعلمهم بأنه تعالى خلق مَن قبلهم؛ لأن طريقة العلم بذلك واحدة، **الثاني:** أن مَن قبلهم كالأصول لهم، وخَلْق الأصول يجري مجرى الأنعام على الفروع، فكأنه تعالى يذكرهم عظيم إنعامه عليهم، كأنه تعالى يقول: لا تظن أني إنما أنعمت عليك حين وُجدت، بل كنت منعما عليك قبل أن توجد بألوف السنين، بسبب أني كنت خالقًا لأصولك وآبائك."[1]

هذا كلام الفخر (رحمه الله)، ويمكن أن يضاف إليه ما يلي:

في ذكر الجيل السابق أو الأجيال السالفة هنا فوائد؛ منها:

- إعلام الناس بعموم قدرته جل شأنه، وأنه قادر على الإحياء والإماتة؛ إذ خَلَقَ السابقين وأماتهم.

- الإشارة إلى أن الحاضرين ليسوا مخلدين، فهم سيموتون كما مات من سبقوهم، وسيبعثون جميعا يوم الدين.

- العرب كانوا يعتزون بأسلافهم، فالله (ﷻ) بين أنه هو وحده الذي خلق أسلافهم.

- صفة الربوبية وصفة الخلق والتكوين للكون كله، ولمن حضر من الناس، ومن سبقوهم وقُبروا في مقابرهم، تقتضي ألا يُعبَد سواه، ولا يُحمَد غيره، إذ القادرُ على ذلك قادر على ضرّكم ونَفعكم، وهو أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نَفع ولا ضرّ[2]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ مفاتيح الغيب ٣٣٤/٢.

٢ــ يراجع: جامع البيان ٣٦٢/١، وزهرة التفاسير ١٥٦/١-١٥٧، والتحرير والتنوير ٣٢٧/١.

هل يحتاج الله تعالى إلى المشورة؟!

٣- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: ٣٠، يستعين بالفنقلة لدفع ما قد يُتوهَم من ظاهر الآية الكريمة، فيقول:

"**فإن قيل:** ما الفائدة في أن قال الله تعالى للملائكة هذا مع أنه منزه عن الحاجة إلى المشورة؟!

والجواب أنه تعالى علَّم عباده المشاورة."(١)

فكما ترى يفيد الفخرُ أن فائدة ذلك تعليم الله تعالى عباده المشاورة، وأزيد عليه أن هذا من باب التكريم للملائكة، وأنه تعليم في قالب التكريم.

ويرى البعض أن الكلام مُوَجَّهٌ إلى الملائكة على وجه الإخبار؛ ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وَجْهٍ يُزِيلُ ما عَلِمَ الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس.

وقيل: ليُطلع الله الملائكة على ما في نفس إبليس من الكبر، وليظهر ما سبق عليه في علمه.

وقيل: ليبلو طاعة الملائكة، وليظهر عجزهم عن الإحاطة بعلمه، أو ليعظم آدم بذكر الخلافة قبل وجوده، وليكونوا مطمئنين له، أو ليعلمهم بسكناه الأرض وإن كان ابتداء خلقه في السماء، أو ليتجاوز الخطاب ما ذُكر فيحصل منهم الاعتراف والرجوع عما كانوا يظنون من كمال العلم، أو ليظهر علو قدر آدم في العلم بقوله لآدم: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ سورة البقرة: ٣٣، أو ليعلمنا الأدب معه وامتثال الأمر، عقلنا معناه أو لم نعقله؛ لتحصل بذلك الطاعة المحضة.

١ــ مفاتيح الغيب ٢/٣٨٩.

وقد عرفت الملائكة ذلك حتى تعجبوا منه بإخبارٍ من اللَّه، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أنّ الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر؛ حيث سكن الجنُّ الأرضَ فأفسدوا فيها.

فقول الملائكة على طريق التعجب أو على طريق الاستعظام والإكبار للاستخلاف والعصيان[1]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سجود الملائكة لآدم!!!

٤- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ سورة البقرة: ٣٤، يستعين بالفنقلة أيضًا لدفع ما قد يُتوهَم من ظاهر الآية الكريمة من جواز سجود العبادة لغير الله تعالى، فيقول:

"**فإن قيل:** السجود عبادة، والعبادة لغير الله لا تجوز!!!

قلنا: لا نسلِّم أنه عبادة، بيانه أن الفعل قد يصير بالمواضعة مفيدًا كالقول، يبين ذلك أن قيام أحدنا للغير يفيد من الإعظام ما يفيده القول، وإذا ثبت ذلك لم يمتنع أن يكون في بعض الأوقات سقوط الإنسان على الأرض وإلصاقه الجبين بها مفيدًا ضربًا من التعظيم وإن لم يكن ذلك عبادة، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يتعبد الله الملائكة بذلك إظهارًا لرفعته وكرامته."[2]

فالحاصل أن السجود لآدم (عليه السلام) كان على الحقيقة – وكان بالجبهة، وقيل: على الركبتين؛ لأنه بوضع الجبهة لله وللبشر بالانحناء– وأنه متضمن معنى الطاعة لله تعالى بامتثال أمره، وأنه كان سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة؛ كسجود إخوة يوسف له في قوله (عز وجل): ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ سورة يوسف:١٠٠.

١ــ يراجع: معالم التنزيل ٧٩/١، والكشاف ١٢٥/١، والمحرر الوجيز ١١٧/١، والبحر المحيط ٢٨٩/١، والتحرير والتنوير ٣٧٩/١ وما بعدها.

٢ــ مفاتيح الغيب ٤٢٨/٢.

ويرى البعض أن معنى قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ أي: إلى آدم، والسجود لله تعالى، كما جُعِلَتِ الكعبة قِبْلَةً للصلاة، والصلاة لله تعالى.[1]

ولا حاجة لمثل هذا التكلف في التأويل؛ فالمعلوم لكل ذي عقل أن سجود العبادة لا يكون إلا لله تعالى، وأن السجود هنا للتعظيم، وفيه مَنْزَعٌ بديع لتعظيم شأن العلم، وجدارة العلماء بالتعظيم والتبجيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حصول الأحزان للمؤمنين في الدنيا!!!

٥- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة: ٣٨، يستعين بالفنقلة أيضًا لدفع ما قد يُتوهَم من ظاهر الآية الكريمة من نفي الحزن مطلقًا عن المؤمنين، فيقول:

"**فإن قيل:** هذا يقتضي نفي الخوف والحزن مطلقًا في الدنيا والآخرة، وليس الأمر كذلك؛ لأنهما حصلا في الدنيا للمؤمنين أكثر من حصولهما لغير المؤمنين، وأيضًا فالمؤمن لا يمكنه القطع أنه أتى بالعبادات كما ينبغي، فخوف التقصير حاصل، وأيضًا فخوف سوء العاقبة حاصل!!!

قلنا: قرائن الكلام تدل على أن المراد نفيهما في الآخرة لا في الدنيا؛ ولذلك حكى الله عنهم أنهم قالوا حين دخلوا الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ سورة فاطر: ٤٣؛ أي أذهب عنا ما كنا فيه من الخوف والإشفاق في الدنيا من أن تفوتنا كرامة الله تعالى التي نلناها الآن."[2]

والحاصل أن الفخر قد ذهب إلى أن نفي الحزن عن المؤمنين يكون في الآخرة، وأرى – والله الموفق- أن الحزن حين يعتري قلوب المؤمنين في

١ــ يراجع: معالم التنزيل ٨١/١، والكشاف ١٥٦/١، والمحرر الوجيز ١٢٤/١، والتحرير والتنوير ٤٢٢/١.

٢ــ مفاتيح الغيب ٤٧٢/٣.

الدنيا؛ فإن الله تعالى يزيله عنهم ببرد اليقين وبِمِنَح العرفان؛ ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾سورة مريم: ٢٤، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ سورة القصص: ٧؛ فنفي الحزن في الآية التي معنا معناه: نفي ديمومته في الدنيا ونفيه بإطلاق في الآخرة، بخلاف غير المؤمنين؛ فإنه لا يفارق قلوبهم في الدنيا أو الآخرة؛ لحزنهم على أدنى مفقود وفرحهم بأي موجود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أَمْرُ اليهود بالصبر والصلاة مع إنكارهم للنبوة أصلا!!!

٦- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ سورة البقرة: ٤٥، يستعين بالفنقلة أيضًا لبيان أنه لا يمتنع أن يكون الخطاب هنا في بني إسرائيل، بدليل سياق الآيات، وأن ذلك لا ينافي أمرهم بالصبر والصلاة، يقول الفخر:

"**فإن قيل:** كيف يُؤمَرون بالصبر والصلاة مع كونهم منكرين لهما؟!

قلنا: لا نسلِّم كونهم منكرين لهما، وذلك لأن كل أحد يعلم أن الصبر على ما يجب الصبر عليه حسن، وأن الصلاة التي هي تواضع للخالق والاشتغال بذكر الله تعالى يسلِّي عن محن الدنيا وآفاتها، وإنما الاختلاف في الكيفية؛ فإن صلاة اليهود واقعة على كيفية، وصلاة المسلمين على كيفية أخرى، وإذا كان متعلق الأمر هو الماهية التي هي القدر المشترك زال الإشكال المذكور، وعلى هذا نقول: إنه تعالى لمَّا أمرهم بالإيمان، وبترك الإضلال، وبالتزام الشرائع، وكان ذلك شاقا عليهم لما فيه من ترك الرياسات والإعراض عن المال والجاه، عالج الله تعالى هذا المرض فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾"[1].

١ــ مفاتيح الغيب ٣/٤٩٠.

وقال قوم: المخاطَب بهذا: هم المؤمنون بالرسول (ﷺ)؛ لأن من ينكر الصلاة أصلاً والصبر على دين محمد (ﷺ) لا يكاد يقال له: استعن بالصبر والصلاة.[١]

والأقرب ما ذهب إليه الفخرُ من أن المخاطبين هم بنو إسرائيل؛ لأن الخطاب قبل هذه الآية لهم، وصرفه إلى غيرهم يوجب تفكيك النظم، فبنو إسرائيل يدخلون في الخطاب دخولا أوليًّا، ومع ذلك لا مانع من دخول غيرهم معهم، أما القول بأن المؤمنين فقط هم المخاطبون بهذا فهو خارج عن نظم الفصاحة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تكليف بني إسرائيل بعد موتهم!!!

٧- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة البقرة: ٥٦، يستعين بالفنقلة أيضًا لبيان أن الله تعالى بعث بني إسرائيل بعد الموت في دار الدنيا؛ ليكلفهم وليتمكنوا من تلافي ما صدر عنهم من الجرائم، وأن هذا لا يتنافى مع منع التكليف في الآخرة، يقول الفخر:

"**فإن قيل:** كيف يجوز أن يكلفهم وقد أماتهم؟! ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذا بعثهم بعد الموت؟!

قلنا: الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة ليس هو الإماتة ثم الإحياء، وإنما يمنع من ذلك أنه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته تعالى، وإلى معرفة ما في الجنة من اللذات وما في النار من الآلام، وبعد العلم الضروري لا تكليف، فإذا كان المانع هو هذا، لم يمتنع في هؤلاء الذين أماتهم الله بالصاعقة أن لا يكون قد اضطرهم، وإذا كان كذلك صح أن يكلفوا من بعد، ويكون موتهم ثم الأحياء بمنزلة النوم أو بمنزلة الإغماء."[٢]

١ــ مفاتيح الغيب ٣/٤٩٠.

٢ــ المصدر نفسه ٣/٥٢١.

وأصل البعث هو إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، وبعثت البعير: أثرته وسيَّرته، وهو ضربان: بشري: كبَعْث البعير، وبَعْث الإنسان في حاجة، وإلهي: وذلك يختص به الباري تعالى، وقد خص به بعض أنبيائه.(١)

وموت بني إسرائيل هنا: هو ما غشيهم، وفقدوا به إحساسهم، وعبر عنه بالموت؛ لأنه يشبه الموت من حيث إنهم فقدوا شعورهم، وأصبحوا لَا يحسون شيئا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي أثرناهم وحركناهم وأوجدنا فيهم الإحساس، والتعبير بـــ "ثم"؛ للإشارة إلى البعد بين حالهم وهم أشباه الموتى بما صعقهم من غاشية، وما آلوا إليه من شعور بالحياة والحركة. وظاهر الموت مفارقة الروح للجسد، ويطلق على النوم وعلى الغِشيِّ، كما هو هنا.

ولفظ الشكر يتناول جميع الطاعات؛ لقوله تعالى:﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ سورة سبأ: ١٣، وتكليفهم بعد معاينة الأهوال التي تضطرهم وتلجئهم إلى الاعتراف بعد الاقتراف باق، ولا مشكلة في هذا؛ لئلا يخلو بالغ عاقل من تعبد، ولأنهم حين أبوا قبول التوراة نتق الجبل فوقهم فآمنوا وقبلوها، فكان إيمانهم بها إيمان اضطرار، ولم يسقط عنهم التكليف(٢)، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

لعن الله للكافرين!!!

٨- يدفع الفخرُ عن طريق الفنقلة ما يتوهم أيضًا من التعارض بين أَمْره للناس بأن يقولوا حسنا ولَعْنه للكافرين، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سورة البقرة: ٨٩، فيقول:

١ــ المفردات في غريب القرآن للراغب ١٠٠/١، ط: دار القلم- دمشق.

٢ــ يراجع: البحر المحيط ٣٧٣/١، وروح المعاني ٢٦٢/١، وزهرة التفاسير ٢٣٧/١.

"**فإن قيل:** ألم يقل الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ سورة البقرة: ٨٣؟!

قلنا: العام قد يتطرق إليه التخصيص، على أن لعن مَن يستحق اللعن من القول الحسن، والله أعلم."[١]

فالفخر عني أن المراد بالناس في قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: المؤمنون، وأما الكفار والفساق فيجوز لعنهم وذمهم والمحاربة معهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ سورة النساء: ١٤٨، فأباح الجهر بالسوء لمن ظُلم.

ثم إنه يرى أن اللعن من القول الحسن؛ لأن القول الحسن ليس عبارة عن القول الذي يشتهونه ويحبونه، بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعهم به، ونحن إذا لعناهم وذممناهم ليرتدعوا به عن الفعل القبيح، كان ذلك المعنى نافعًا في حقهم، فكان ذلك اللعن قولاً حسناً ونافعًا؛ كما أن تغليظ الوالد في القول قد يكون حسناً ونافعًا من حيث إنه يرتدع به عن الفعل القبيح، وكما أن كشف حال الظالم ليحترز الناس عنه أمر حسن، ومن القول الحسن.[٢]

ويرى أهل التحقيق[٣] أن كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية، فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان –وهو مع الكفار– أو في الدعوة إلى الطاعة –وهو مع الفاسق– أما الدعوة إلى الإيمان فيجب أن تكون بالقول الحسن، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ سورة طه: ٤٤، وأما

١ــ مفاتيح الغيب ٥٩٩/٣.

٢ــ المصدر نفسه ٥٨٩/٣.

٣ــ يراجع: جامع البيان ٣٤٣/٩، والكشاف ٥٨٢/١، والمحرر الوجيز ١٢٩/٢، ومفاتيح الغيب ٥٨٩/٣.

دعوة الفساق فالقول الحسن فيه معتبر أيضًا، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ سورة النحل: ١٢٥، وأما في الأمور الدنيوية فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول لم يحسن سواه، وأما إذا لم يمكن ذلك وعظُم ضرر المسيء، فإن الله جل ثناؤه رخص لمن ظُلم فانتصر من ظالمه في ذلك، كالدعاء عليه وذكر ما فيه من السوء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

كيف يصح نبذهم التوراة وهم يتمسكون بها؟!

٩- ويدفع الفخرُ عن طريق الفنقلة ما يتوهم أيضًا من ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: ١٠١، فيقول:

"**فإن قيل:** كيف يصح نبذهم التوراة وهم يتمسكون بها؟!

قلنا: إذا كان كتابهم يدل على نبوة محمد (ﷺ) بالنعت والصفة، وفيه وجوب الإيمان به، ثم عدلوا عنه، كانوا نابذين للتوراة."[١]

وقد قيل: إن المراد بالكتاب هنا: القرآن؛ والأقرب ما ذهب إليه الفخر – وهو قول الجمهور[٢]– من أن المراد به: التوراة؛ لأن النبذ لا يُعقل إلا فيما تمسكوا به أولاً، وأما إذا لم يلتفتوا إليه لا يقال: إنهم نبذوه، ولأنه لو كان المراد به القرآن لم يكن لتخصيص الفريق معنى؛ لأن جميعهم لا يصدقون بالقرآن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ مفاتيح الغيب ٦١٦/٣.

٢ــ يراجع: جامع البيان ٤٠٣/٢، ومعالم التنزيل ١٢٦/١، والكشاف ١٧١/١، وروح المعاني ٣٣٦/١.

هل كان إبراهيم (عليه السلام) لا يعلم أن النبوة لا تليق بالظالمين؟!

١٠- ويدفع الفخرُ عن طريق الفنقلة ما يتوهم أيضًا من ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سورة البقرة: ١٢٤، فيقول:

"**فإن قيل:** أفما كان إبراهيم (عليه السلام) عالمًا بأن النبوة لا تليق بالظالمين؟

قلنا: بلى، ولكن لم يعلم حال ذريته، فبين الله تعالى أن فيهم مَن هذا حاله، وأن النبوة إنما تحصل لمن ليس بظالم."[١]

وهذا على أن المراد بالعهد: النبوة، وقد ذهب آخرون إلى أن المراد به: الأمان؛ أي: لا ينال أماني من عذابي في الآخرة أعدائي وأهل الظلم لعبادي، وقيل: العهد هنا: الإمامة؛ فليس لظالم أن يُطاع في ظلمه، وقيل: العهد: إدخاله الجنة؛ وقيل غير ذلك.[٢]

والظاهر من هذه الأقوال: أن العهد هو الإمامة؛ لأنها الآية صُدِّرت بها، فأُعلم إبراهيم (عليه السلام) أن الإمامة لا تنال الظالمين؛ لأنهم ليسوا بِأَهْلٍ لِأَنْ يُقْتَدَى بهم.

وقد اكتفى في الجواب بِذِكْرِ المانع من منصب الإمامة مطلقًا – وهو الظلم– لتنفير ذرية إبراهيم (عليه السلام) من الظلم، ليتحاموه، ولتنفير سائر الناس من الظالمين.

وهذا الجواب الذي أجاب الله تعالى به إبراهيم (عليه السلام) هو من الجواب الذي يربو على السؤال؛ لأنه إبراهيم طلب من الله أن يجعل من ذريته أئمة، فأجابه

١ــ مفاتيح الغيب ٣٧/٤.

٢ــ يراجع: جامع البيان ٢٠/٢ وما بعدها، ومعالم التنزيل ١٤٦/١، والمحرر الوجيز ٢٠٧/١.

إلى أنه لا ينال عهده الظالمين، ودل بمفهومه على انقسام ذريته إلى ظالم وغير ظالم؛ فليس فيه ردٌّ لدعوتِه (عليه السلام)، بلْ إجابةً خفيةً لها وعِدَةً إجماليةً منه تعالى بتشريف بعضِ ذريتِه (عليه السلام) بنيل عهدِ الإمامةِ حسبما وقع في دعائه (عليه السلام)[1]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تكرار الحديث عن تمام النعمة!!!

١١- ويدفع الفخرُ عن طريق الفنقلة ما يشكل من تكرار قوله تعالى: ﴿نِعْمَتِيَ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة: ١٥٠، حيث نص الله تعالى على تمام النعمة أيضًا في سورة المائدة في يوم آخر بعد ذكره هذا بكثير، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ سورة المائدة: ٣، يقول الفخر:

"**فإن قيل:** إنه تعالى أنزل عند قرب وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آية المائدة، فبين أن تمام النعمة إنما حصل ذلك اليوم، فكيف قال قبل ذلك اليوم بسنين كثيرة هنا ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ ؟!

قلنا: تمام النعمة اللائقة في كل وقت: هو الذي خصه به في ذلك الوقت، ومن هنا رُوي عنه (صلى الله عليه وسلم): (تمام النعمة دخول الجنة)[2]، وعن علي (رضي الله عنه): تمام النعمة الموت على الإسلام."[3]

ومعنى كلام الفخر أن تمام النعمة في كل وقت بما يليق به، وهو في في غاية الصحة!!!

وقد تنوعت آراء العلماء في متعلق اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ على وجوه:

١ــ يراجع: البحر المحيط ٥٤٨/١، وإرشاد العقل السليم ١٥٦/١، وتفسير المنار ٣٧٥/١، وزهرة التفاسير ٣٩٦/١.

٢ــ رواه الإمام الترمذي بسنده عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، رقم ٣٥٢٧، وقال: حديث حسن.

٣ــ مفاتيح الغيب ١٢١/٤.

أحدها: أنه راجع إلى قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ فبين الله تعالى أنه حولهم إلى هذه الكعبة لحكمتين؛ هما: انقطاع حجة الناس عليهم وتمام النعمة فيه، والذي في ذلك من النعمة: أن القوم كانوا يفتخرون باتباع إبراهيم (عليه السلام) في جميع ما كانوا يفعلون، ولذلك كان النبي (ﷺ) يحب التحول إلى الكعبة؛ لما فيه من شرف البقعة، فهذا موضع النعمة، ويجوز أن يكون إتمام النعمة بما أعدّه لهم من ثواب الطاعة، أو بإدخالهم الجنة، أو بالموت على الإسلام، أو الغنى عن الناس؛ وكلها أقوال صدرت مصدر المثال لا مصدر التعيين، وكل فيها نعمة.

وثانيها: أن متعلق اللام محذوف معناه: ولإتمام النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك.

وثالثها: أن يعطف على علة مقدرة؛ كأنه قيل: واخشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم.[1]

والظاهر أنه معطوف على قوله:﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: عرَّفناكم وجه الصواب في قبلتكم؛ لانتفاء حجج الناس عليكم، ولإتمام النعمة، فيكون التعريف معللاً بهاتين العلتين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

إرداف البلاء للشكر!!!

١٢- ويدفع الفخرُ عن طريق الفنقلة ما يشكل من أنه تعالى عقَّب الآية الكريمة: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ سورة البقرة: ١٥٢، بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ سورة البقرة: ١٥٣، فيقول:

١ــ يراجع: معالم التنزيل ١٦٦/١، والكشاف ٢٣٢/١، والمحرر الوجيز ٢٢٦/١، والبحر المحيط ٦١٦/١.

"**فإن قيل:** إنه تعالى قال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، والشكر يوجب المزيد على ما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ سورة إبراهيم: ٧، فكيف أردفه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؟!

والجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى أخبر أن إكمال الشرائع إتمام النعمة، فكان ذلك موجبًا للشكر، ثم أخبر أن القيام بتلك الشرائع لا يمكن إلا بتحمل المحن، فلا جرم أمر فيها بالصبر، **الثاني:** أنه تعالى أنعم أولاً فأمر بالشكر، ثم ابتلى وأمر بالصبر؛ لينال الرجل درجة الشاكرين والصابرين معًا، فيكمل إيمانه."[1]

وأرى – والله الموفق– أن منازع الصبر متعددة، فهناك الصبر على الشهوات، وهناك الصبر على القيام بالواجبات، وهناك الصبر على اللغو من قول الناس والإقامة مع الضعفاء؛ كما قال تعالى:﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ سورة الكهف: ١٨، وهناك الصبر على شدائد الدنيا، وهناك الصبر عند لقاء الأعداء.

فمن الصبر شكر النعمة وعدم كفرانها؛ ولذا قال تعالى في موضع آخر يبين ذلك: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ سورة هود: ٩-١١.

والخلاصة أن الاستعانة بالصبر تكون على الذكر وعلى الشكر وعلى سائر الطاعات؛ ولذا فإنه تعالى ذكر أنه مع الصابرين، ولم يقل: مع المصلين؛ لاشتمال الصبر عليها وعلى سائر الطاعات.

١ــ مفاتيح الغيب ١٢٨/٤.

وأيضًا فنعم الدنيا مقرونة بضروب البلاء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

هل قتال الكفار يزيل الكفر؟! وكيف سُمِّي عدوانًا مع أنه حقٌّ؟!

١٣- ويدفع الفخرُ عن طريق الفنقلة الإشكال الذي قد يرد على الذهن في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سورة البقرة: ١٩٣، فيقول:

"**فإن قيل:** كيف يقال ذلك مع علمنا بأن قتالهم لا يزيل الكفر؟!

قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن هذا محمول على الأغلب؛ لأن الأغلب عند قتالهم زوال الكفر والشرك؛ **الثاني:** أن المراد: قاتلوهم قصدًا منكم إلى زوال الكفر؛ لأن الواجب على المقاتل للكفار أن يكون مراده هذا، ولذلك متى ظن أن من يقاتله يقلع عن الكفر بغير القتال، وجب عليه العدول عنه.

فإن قيل: لم سمي ذلك القتل عدواناً مع أنه في نفسه حق وصواب؟!

قلنا: لأن ذلك القتل جزاء العدوان، فصح إطلاق اسم العدوان عليه؛ كقوله تعالى:﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ سورة الشورى: ٤٠، وقوله تعالى:﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ سورة البقرة: ١٩٤."[١]

ومعنى كلام الفخر في الفنقلة الأولى هنا أن الذين يُقاتَلون: هم الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ سورة البقرة: ١٩١؛ فإذا وُجدت فتنة مُنع الناس فيها من حرية الاعتقاد، وأُوذي فيها أهل الإسلام، بإخراجهم من ديارهم، أو خلعهم من أموالهم، كما فعل المشركون بالمسلمين في صدر الإسلام، فإنه يلزم القتال في سبيل الله؛ حتى يكون الدين كله لله؛ أي يكون دين كل شخص خالصًا

١ــ مفاتيح الغيب ٥/٢٩١.

لله، لا أثر لخشية غيره فيه، وحتى لا تكون للمشركين قوة يفتنون بها المسلمين ويؤذونهم لأجل دينهم.

"وقد راجع رجلٌ ابنَ عمر (رضي الله عنهما) في توقفه في الفتنة مستدلاً عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ سورة الحجرات: ٩، فعارضه بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء: ٩٣، فقال الرجل: ألم يقل:﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾؟ فأجابه ابن عمر بأنا فعلنا ذلك على عهد رسول الله (ﷺ) إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتَن عن دينه بقتله أو تعذيبه، وكثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله."[1]

وهذا يدل على صحة مفهوم الفخر للآية الكريمة.

وأما الفنقلة الثانية هنا: فيبين بها الفخرُ أن مقاتلة المنتهين لا تجوز، وأما مَن ظلم ممن بدأ بالقتال فإنه يُقاتَل، وقد سُمِّي جزاء الظلم باسمه للمشاكلة، "وفيه ما يفيد بأن التعرض للمنتهين ظلم"[2]، كما ذكر الزمخشري (رحمه الله)، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

كيف يأمرُ الله المسلمين بالدخول في الإسلام؟!

١٤- يدفع الفخرُ عن طريق الفنقلة هذا الإشكال، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ سورة البقرة: ٢٠٨، فيقول:

١ــ معالم التنزيل ١/٢١٤.

٢ــ الكشاف ١/٢٦٣.

"**فإن قيل:** الموصوف بالشيء يقال له: دُمْ عليه، ولا يقال له: ادْخُلْ فيه!!!

قلنا: إن الكائن في الدار إذا علم أن له في المستقبل خروجًا عنها، فغير ممتنع أن يؤمر بدخولها في المستقبل حالاً بعد حال، وإن كان كائنًا فيها في الحال؛ لأن حال كونه فيها غير الحالة التي أُمر أن يدخلها، فإذا كان في الوقت الثاني قد يخرج عنها، صح أن يُؤمر بدخولها، ومعلوم أن المؤمنين قد يخرجون عن خصال الإيمان بالسهو وغيره من الأحوال، فلا يمتنع أن يأمرهم الله تعالى بالدخول في المستقبل في الإسلام."[١]

وما ذكره الفخر من الفنقلة هنا بناء على أن السلم هو الإسلام، وأقول والله الموفق:

أولا: اختلف القرأة في قراءة ذلك، فقرأ ابن كثير ونافع والكسائي هذه والتي في سورة الأنفال: ٦١ ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾ وفي سورة محمد (ﷺ): ٣٥ ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ بفتح السين، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالكسر فيها كلها، وقرأ حفص عن عاصم وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين في هذه التي في البقرة وحدها، وبفتح السين في الأنفال وفي سورة محمد (ﷺ)، وقرأ حمزة بالفتح في الأنفال وحدها.

وقد ذهب ذاهبون إلى أنهما لغتان بالفتح والكسر؛ مثل جَسْر وجِسْر، وقيل: الكسر بمعنى الإسلام، والفتح بمعنى الموادعة والمصالحة.[٢]

ثانيًا: (ذهب البعض إلى أن اللفظ: من المسالمة)، والمعنى: ادخلوا في الصلح والمساومة وترك الحرب، والمعنى على هذا: يَا أَيُّهَا الذين آمنوا إن

١ــ مفاتيح الغيب ٣٥٢/٥.

٢ــ يراجع: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٢٩٢/٢، ط: دار المأمون للتراث– دمشق، ت: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، وإبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة المقدسي ٣٥٩/١، ط: دار الكتب العلمية.

إيمانكم يوجب عليكم أن تدخلوا في السلام العام، فلا تنابذوا أحدًا لم يعتد عليكم، ولا تقاتلوا من لم يرفع عليكم سيفًا، ولم يوال عليكم عدوا، ثم قووا وحدتكم بالسلم الموثقة والإخاء الجامع.

ولا شك أن السلام بين المسلمين أمر يفرضه الدين، وهو مما علم من الدين بالضرورة لَا يماري فيه من في قلبه ذرة من إيمان، ومن قال غيره فقد أعظم الفرية على الإسلام وأهله.

أما مسالمة المسلمين لغيرهم فلقد دعا الإسلام إلى السلام وحث عليه، ولكن سلام الإسلام سلام عزيز قوي، وليس بسلام ذليل خانع، والسلام القوي يرد الاعتداء بمثله.

(وذهب آخرون إلى أن السلم بمعنى الإسلام)؛ لأن الإسلام قد يُسمَّى سِلمًا وسَلْمًا.

– فإن كان الخطاب لعبد الله بن سلام وأصحابه، فقد أُمروا بالدخول في شرائع الإسلام، وعدم البقاء على شيء من شرائع أهل الكتاب التي لا توافق شرائع الإسلام.

– وإن كان الخطاب لأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالرسول (ﷺ)، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بما سبق من أنبيائهم ادخلوا في هذه الشريعة.

– وإن كان الخطاب للمنافقين، فالمعنى: يا من آمن بلسانه ادخل في الإسلام بالقلب؛ حتى يطابق القول الإعتقاد.

– وإن كان الخطاب للمسلمين فإنه يتوجه الإشكال الذي ذكره الفخر، ويمكن أن يقال في معناه ما ذكره الفخر، ويمكن أن يقال أيضًا: يا من آمن بقلبه ادخل في شرائع الإسلام، واجمع إلى الإيمان الإسلام.

– والظاهر من هذه الأقوال أنه خطاب للمؤمنين أُمروا فيه بامتثال شرائع الإسلام وترك الاختلاف؛ ولذلك جاء بقوله: ﴿كَآفَّةً﴾ أي: ادخلوا في السلم جميعًا، فهي حال من الواو في ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ تؤكد معنى العموم.

وأجاز الزمخشري وغيره أن يكون حالاً من السلم، أي في شرائع الإسلام كلها، أُمروا بأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة، أو يأخذوا بحكم ويتركوا حكما، فلا يأخذوا مثلا بالصلاة ويمنعوا الزكاة، ولا يأخذوا بأحكام الزواج ويتركوا أحكام الربا، وهكذا لَا يصح أن يُؤخَذ بعض الإسلام ويُترك بعضه، كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه.(١)

وبعد، فهذا غاية الوسع في بيان كلا الفخر هنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

عطاء الله بحساب أم بغير حساب؟!

١٥- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة البقرة: ٢١٢، يدفع بالفنقلة التعارض المتوهم بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾، فيقول: "فإن قيل: أليس هذا كالمناقض لذلك؟!

قلنا: بل نحمل قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ على التفضل، ونحمل قوله: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ على المستحق بحسب الوعد على ما هو قول أهل السنة أو بحسب الاستحقاق على ما هو قول المعتزلة؛ ولذا فالسؤال ساقط."(٢)

وأقول – والله الموفق–: اقتضى عدل الله تعالى عند المعتزلة ألا يسوي بين المطيع والعاصي؛ فالمطيع يجب أن يُثاب، والعاصي يجب أن يُعاقب، والثواب عند المعتزلة: منفعة تُستحَقُّ على سبيل التعظيم والإجلال، وهذا لأن المنافع عند المعتزلة قسمان: منفعة غير مستحقة؛ وهي التفضل، ومنفعة مستحقة؛ وهذه قسمان: منفعة مستحقة لا على سبيل التعظيم؛ وهي العوض،

١ــ جامع البيان ٤/٢٥١ وما بعدها، والبحر المحيط ٢/١٢٩، وزهرة التفاسير ٢/٦٥٠.

٢ــ مفاتيح الغيب ٦/١٠، ط: دار الكتب العلمية.

ومنفعة مستحقة على سبيل التعظيم؛ وهى الثواب، وقد استدلوا على استحقاق العبد للثواب بأن الله تعالى قد ألزمه الأمور الشاقة؛ فلولا أنه يستحق بها الثواب؛ لقبح أن يوجبها تعالى عليه على ما فيها من المشقة.(١)

وأما أهل السنة فيرون أن فعل الطاعة لا يوجب الثواب؛ لأنه لا يجب على الله تعالى لأحد من العبيد شيء ألبتة؛ إذ الوجوب لا يتقرر معناه إلا إذا كان بحيث لو لم يفعله الفاعل لاستحق الذم؛ وهذا محال في حق الله تعالى؛ لأن مَن كان كذلك؛ فإنه يكون مُستكمَلاً بفعل الواجب، والمستكمل بالغير ناقص لذاته؛ وهذا في حقه جل شأنه محال؛ كما أن من كان متعاليًا عن الشهوة والنفرة والزيادة والنقصان لا يُعقل تحقق الوجوب عليه.

ولو كان فِعْل الطاعة يوجب الثواب، لَتَوَجَّه على الله تعالى من العبد مطالبة مُلْزِمة؛ وذلك ينافي قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ سورة المائدة: ١.

ومما يدل عليه من جهة المعقول: أن نعم الله على العبد لا تُحصى؛ وهي موجبة للطاعة والشكر؛ وإذا كانت الطاعات تقع في مقابلة النعم السالفة؛ امتنع كونها موجبة للثواب في المستقبل.(٢)

والخلاصة أنه إذا وعد الله تعالى عباده بشيء كان وقوعه واجبًا بحكم وعده؛ فإن وعده لا يتخلف؛ وإنما كان وعده بحكم الفضل، لا بحكم الاستحقاق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

<u>هل كل مَن لحقه شدة سيظفر بزوالها؟!</u>

١٥- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى:﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ سورة البقرة: ٢١٤، يجيب بالفنقلة عن هذا السؤال، ليزيل الإشكال، فيقول:

١ــ يراجع: شرح الأصول الخمسة ص ٨٦، والمختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار ضمن رسائل العدل والتوحيد للدكتور عمارة ص ٢٥٧.

٢ــ يراجع: مفاتيح الغيب ١٠/١٤٠-١٤١، ١٤/١٠١، ط: دار الكتب العلمية.

"**فإن قيل:** قوله تعالى ذلك يوجب في حق كل من لحقه شدةٌ أن يعلم أنه سيظفر بزوالها، وذلك غير ثابت!!!

قلنا: لا يمتنع أن يكون هذا من خواص الأنبياء (عليهم السلام)، ويمكن أن يكون ذلك عامًّا في حق الكل؛ إذ كل من كان في بلاء فإنه لا بد له من أحد أمرين، إما أن يتخلص عنه، وإما أن يموت، وإذا مات فقد وصل إلى من لا يهمل أمره ولا يضيع حقه، وذلك من أعظم النصر، وإنما جعله قريبًا؛ لأن الموت قريب."[١]

هذا جواب الفخر، ويزيده بيانًا قول ابن عباس (رضي الله عنهما): "النصر في الآخرة؛ لأن المؤمن لا ينفك عن الابتلاء، ومتى انقضى حرب جاءته أخرى، فلا يزال في جهاد العدو، والأمر بالمعروف، وجهاد النفس إلى الموت."[٢]

فأهل الحق في مغالبة دائمة، لَا ينتقلون من شدة إلا إلى أعلى منها حتى يفوزوا؛ فإن الشيطان من يوم أن وسوس لآدم وحواء وأخرجهما من الجنة، وأبناؤهما في بلاء؛ تستغوي الشهوات جموعهم، فيندفعون فيها مجترعين من عسلها الوبئ، ثم يلغون في الشر، فإذا تقدم دعاة الخير يدعونهم بعد أن يتبين الرشد من الغي، عادوهم وأصابوا منهم، واعتقدوا أن ما يدعون إليه فيه ذهاب طغيانهم، والحد من أهوائهم[٣]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

<u>هل تستلزم التوبةُ الذنب؟!</u>

١٦- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ سورة البقرة: ٢٢٢، يبين بالفنقلة أن حبَّ الله تعالى تكثير التوبة لا يستلزم حبه الإكثار من الذنوب، فيقول:

١ــ مفاتيح الغيب ٢٠/٦.

٢ــ البحر المحيط ١٤٩/٢.

٣ــ زهرة التفاسير ٦٧٦/٢.

"**فإن قيل:** ظاهر الآية يدل على أنه يحب تكثير التوبة مطلقًا، والعقل يدل على أن التوبة لا تليق إلا بالمذنب، فمن لم يكن مذنبًا وجب ألا تحسن منه التوبة؟

والجواب من وجهين: الأول: أن المُكلَّف لا يأمن ألبتة من التقصير، فتلزمه التوبة دفعًا لذلك التقصير المُجوَّز، **الثاني:** التوبة في اللغة: عبارة عن الرجوع، ورجوع العبد إلى الله تعالى في كل الأحوال محمود."[1]

والقول ما قال الفخر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

محمد (ﷺ) أفضل الخلق:

١٧- وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ سورة البقرة: ٢٥٣، يدفع بالفنقلة ظواهر الآيات التي قد يُتوهَّم منها أفضلية أحد من الأنبياء على الرسول (ﷺ) في أي جانب من الجوانب، فيقول:

"فإن قيل: إنه تعالى خص آدم (عليه السلام) بالعلم فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ سورة البقرة: ٣١، وأما محمد (ﷺ) فقال في حقه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ سورة الشورى: ٥٢، وأيضًا فمعلِّم آدم هو الله تعالى ومعلِّم محمد (ﷺ) جبريل (عليه السلام)؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ سورة النجم: ٥.

والجواب أنه تعالى قال في علم محمد (ﷺ): ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ سورة النساء: ١١٣، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ سورة الرحمن: ١-٢، وقال تعالى لمحمد (ﷺ): ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ سورة طه: ١١٤، وأما الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، فذاك بحسب التلقين، وأما التعليم فمن الله

١ــ مفاتيح الغيب ٦/٤٢٠.

تعالى، كما أنه تعالى قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ سورة السجدة: ١١، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾سورة الزمر: ٤٢ فإن قيل: قال نوح (عليه السلام): ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة الشعراء: ١١٤، وقال الله تعالى لمحمد (ﷺ): ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ سورة الأنعام: ٥٢، وهذا يدل على أن خلق نوح أحسن!!!

قلنا: إنه تعالى قال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ سورة نوح: ١، فكان أول أمره العذاب، وأما محمد (ﷺ) فقيل فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ سورة الأنبياء: ١٠٧، وقيل:﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة التوبة: ١٢٨، فكان عاقبة نوح أن قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ سورة نوح: ٢٦، وعاقبة محمد (ﷺ) الشفاعة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ سورة الإسراء: ٧٩، وهذا الكتاب لا يحتمل أكثر مما ذكرناه، والله أعلم."[١]

نفي النوم بعد نفي النعاس!!!

١٨- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾سورة البقرة: ٢٥٥، يبين بالفنقلة أن لنفي النوم بعد نفي النعاس سرًّا، فيقول:

"**فإن قيل:** إذا كانت السِّنة عبارة عن مقدمة النوم الذي يُسمَّى النعاس، فإذا نفى ذلك، فقد دل ذلك على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى، وكان ذكر النوم تكريرًا!!!

قلنا: تقدير الآية: لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه النوم."[٢]

١ــ مفاتيح الغيب ٦/٥٢٥-٥٢٦.

٢ــ المصدر نفسه ٧/١٠.

فكما ترى يبين الفخر أن مقتضى النسق هو أن ينفي عنه سبحانه النوم، ثم ينفي السِّنة، لأن نفي النوم لَا يقتضي نفي السِّنة، وعلى العكس نفي السِّنة يقتضي نفي النوم.

ولكن عُدل عن ذلك، لأن الترتيب الطبيعي لهذه الحقائق في الوجود أن السِّنة تسبق النوم، فتأخيرُ النوم للمحافظة على ترتيب الوجودِ الخارجي، فلتقدمها على النوم في الخارج قدمت عليه في اللفظ.

ويرى الإمام الآلوسي أنه جاء على طريق التتميم، وهو أبلغ؛ لما فيه من التأكيد، أو هو على أسلوب الإحاطة والإحصاء، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ سورة الكهف: ٤٩، ولهذا توسطت كلمة (لا)؛ تنصيصًا على الإحاطة وشمول النفي لكل منهما؛ إذ لو أسقطت لاحتمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع، تقول: ما قام زيد وعمرو بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو بل أحدهما.[١]

ونقل الإمام الآلوسي عن بعض المحققين: هذا كله إنما يُحتاج إليه إذا حُمل الأخذ على معنى العروض والاعتراء، وأما لو حُمل على معنى القهر والغلبة -كما ذكره الراغب[٢]- ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ سورة القمر: ٤٢، فالترتيب على مقتضى الظاهر؛ إذ يكون المعنى: لا تغلبه السنة ولا النوم الذي هو أكثر غلبة منها، فَذِكْرُ النوم بعد السِّنَةِ تَرَقٍّ مِنْ نَفْيِ الأضعف إلى نَفْيِ الْأَقْوَى[٣]، وهو كلام وجيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ روح المعاني ٨/٣.

٢ــ المفردات في غريب القرآن ١٩/١.

٣ــ روح المعاني ٨/٣.

هل مجموع المن والأذى هو المبطل للأجر أم يبطله أحدهما؟

١٩- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة: ٢٦٢، يدفع بالفنقلة ما قد يُتوهَّم من ظاهر الآية الكريمة من أن مجموع المنِّ والأذى هو المبطل للأجر دون أحدهما، فيقول: "فإن قيل: ظاهر اللفظ أنهما بمجموعهما يبطلان الأجر، فيلزم أنه لو وُجد أحدهما دون الثاني لا يبطل الأجر!!!

قلنا: بل الشرط أن لا يوجد واحد منهما؛ لأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ يقتضي أن لا يقع منه لا هذا ولا ذاك."[١]

والمن: أَنْ يَعْتَدَّ على مَنْ أَحْسَنَ إليه بإحسانه، يريد أنه أوجب بذلك عيه حقًّا، **والأذى:** أن يتطاول على المنفَق عليه بسبب الإنعام.

والأذى أعمّ من المنّ، لأنّ المن جزء من الأذى، لكنه نص على المن؛ لكثرة وقوعه.

وتوسيط (لا)؛ للدلالة على شمول النفي بإفادة أن كُلًّا منهما كافٍ وحده لإحباط العمل[٢]، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصف المؤمنين بالإيمان في أول الآية مع التشكيك فيه في آخرها!!!

٢٠- وعند تفسير الفخر لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٧٨، يدفع بالفنقلة ما قد يُتوهَّم من ظاهر الآية الكريمة من أن الله تعالى ناداهم بصفة الإيمان في أول الآية، ثم شكّك في ذلك في آخرها، فيقول:

١ــ مفاتيح الغيب ٤١/٧.

٢ــ يراجع: المحرر الوجيز ٣٥٦/١، والبحر المحيط ٣١٨/٢، وإرشاد العقل السليم ٢٥٨/١.

"**فإن قيل:** كيف قال أولاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثم قال في آخره: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ؟!

فالجواب من وجوه: الأول: أن هذا مثل ما يقال: إن كنت أخًا فأكرمني، معناه: إن من كان أخًا أكرم أخاه، **والثاني:** إن كنتم تريدون استدامة الحكم لكم بالإيمان، **والثالث:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بلسانهم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بقلوبكم."[1]

فالفخر قد أراد بالوجه الأول الذي ذكره أنه قَدْ عُهِدَ الأسلوب العربي أن يقال: إن كنت مُتَّصِفًا بهذا الشيء فافعل كذا، ثم يَذْكُرُ أَمْرًا مِنْ شأنه أن يكون أثرًا لذلك الوصف.

وأراد بالوجه الثاني الذي ذكره أن المذكور شرط يراد به الاستدامة، ويمكن أن يكون شرطًا محضًا؛ فقد رُوي أن الآية نزلت في ثقيف في أول دخولهم في الإسلام.[2]

وأراد الفخر بالوجه الثالث الذي ذكره أن تحقيق ذلك شرط كمال؛ لأن الإيمان يتكامل إذا اجتنبت الكبائر، فمَنْ لم يترك ما بقي من الربا بعد نهي الله عنه فلا يُعَدُّ من أهل الإيمان التامِّ.

وإلى الوجه الأخير جنح الإمام الطبري، فقال: "يعني جل ثناؤه بذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدّقوا بالله وبرسوله (ﷺ) ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وخافوه على أنفسكم، ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي: اتركوا طلب ما بقي لكم من فَضْل على

١ــ مفاتيح الغيب ٨٣/٧.

٢ــ المحرر الوجيز ٣٧٤/١.

رءوس أموالكم التي كانت لكم قبل أن تُربوا عليها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدقين ألسنتكم بأفعالكم."[1]

وهو الوجه الأوجه عندي؛ فمن الناس من يؤمن بالكتاب بلسانه ويجحده بأفعاله، والإيمان دعوى تحتاج إلى دليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ جامع البيان ٢٢/٦.

المبحث الخامس
(الحجاج والفنقلة)

يلجأ الإمام الرازي إلى الفنقلة في الحجاج، ويمكن أن نسميها أيضًا آلية الحوار الذاتي؛ حيث يفترض شخصية معينة تحاوره وتقوم بطرح سؤال معين عليه؛ وهذه الشخصية يفترضها من خصومه الذين ينازعونه الحجة، وهو يريد إقناعه والغلبة عليه، ويتخذ من البرهان والحجة منطلقًا أساسيا في استدلاله على ما يذهب إليه، ويوظف الدلالات اللغوية والبلاغية في الانتصار لآرائه، وفِعْله هذا يجعل القارئ لتفسيره يتفاعل مع أسلوبه المشوِّق ويكتسب شيئًا من موهبة الحجاج!!!

(الحجاج مع المعتزلة):

استعمل الفخر الفنقلة في حجاجه مع المعتزلة، وذلك في عدة قضايا؛ منها:

١- قضية الوعد والوعيد:

ومعناه عند المعتزلة وجوب الثواب والعقاب على الله تعالى؛ لأن وعد الله ووعيده صدق لا يمكن أن يتخلف، والعدالة حسب وجهة نظرهم تقتضي ذلك؛ لأنه تعالى لا يكلِّف بالإيمان ويُقدر عليه؛ ثم لا يثيب على الإتيان به ولا يعاقب على تركه؛ وإلا كان التكليف عبثًا؛ وهو على الله تعالى محال، ورتبوا على هذا المبدأ أن أصحاب الكبائر من المسلمين إذا لم يتوبوا منها قبل مماتهم مخلَّدون في النار، ونفوا شفاعة رسول الله (ﷺ) لهم؛ إذ الشفاعة عندهم إنما هي في رفع درجات المؤمنين في النعيم.[١]

١ــ يراجع: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٢٨ وما بعدها، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكتاب أصول العدل والتوحيد للقاسم الرَّسِّي ضمن سلسلة رسائل العدل والتوحيد للدكتور محمد عمارة ١٢٤/١، ط: مطابع الشروق- القاهرة، الطبعة الثانية.

أما أهل السنة – والفخر منهم – فيرون أنه لا يجب على الله تعالى شيء إلا بحكم الفضل والكرم والوعد؛ لا بحكم الاستحقاق –كما يقول المعتزلة– ويرون أن قول المعتزلة بذلك فيه تكبر على الله تعالى وخروج على نعمته؛ ويرون أن الظلم منفي عنه تعالى بطريق السلب المحض؛ لفقد شرطه المصحِّح له؛ لأن الظلم إنما يُتصوَّر ممن يصادف فِعْلُهُ ملك غيره؛ ولله تعالى الخلق والأمر؛ تبارك الله رب العالمين، وبناء عليه فآيات الوعد في المؤمنين الطائعين ومن حازته المشيئة من العصاة، وآيات الوعيد في المشركين ومن حازه الإنفاذ من العصاة.(١)

وقد استعمل الفخرُ الفنقلة في حجاجه مع المعتزلة في هذا الباب، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة البقرة: ٧، ما يلي:

"**فإن قيل:** إخلاف الوعد والوعيد كذب، والكذب قبيح؟!

قلنا: لا نسلِّم أن كل كذب قبيح، بل القبيح هو الكذب الضار، فأما الكذب النافع فلا إثم فيه إن سلمنا ذلك، لكن لا نسلم أنه كذب، أليس جميع عمومات القرآن مخصوصة ولا يسمى ذلك كذبًا؟ أليس أن كل المتشابهات مصروفة عن ظواهرها ولا يسمى ذلك كذبًا؟ فكذا ههنا."(٢)

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ سورة البقرة: ٢٧٠، يستعمل الفخرُ الفنقلةَ أيضًا في رده على المعتزلة في نفيهم الشفاعة؛ حيث قال: "فإن قيل: لفظ الظالمين ولفظ الأنصار جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع توزع الفرد على الفرد، فكان المعنى: ليس لأحد من الظالمين أحد من الأنصار!!!

١ــ يراجع: مفاتيح الغيب ٤٩٣/١٢.

٢ــ المصدر نفسه ٢٩٩/٢.

قلنا: لا نسلم أن مقابلة الجمع بالجمع تُوجب توزع الفرد على الفرد؛ لاحتمال أن يكون المراد مقابلة الجمع بالجمع فقط، لا مقابلة الفرد بالفرد؛ فالمعنى المراد: ليس لمجموع الظالمين أنصار.

وأيضًا فالدليل النافي للشفاعة هنا كما تزعم المعتزلة عام في حق الكل وفي كل الأوقات، والدليل المثبت للشفاعة خاص في حق البعض وفي بعض الأوقات، والخاص مقدم على العام، والله أعلم."[١]

والخلاصة أن الشفاعة عند أهل السنة يكون لها تأثير في رفع درجات أهل الثواب؛ كما أن لها تأثيرًا في إسقاط العقوبة عن أهل العقاب، وأما الآية السابقة ونظيراتها فمحل ذلك كله في الكافرين.

٢- تعليل أفعال الله تعالى:

واستخدم الفخرُ الفنقلةَ أيضًا في رده على المعتزلة الذين يرون أن الله تعالى خلق الخلق لأغراضٍ لا يعلمها إلا من أدّى الفكر حقه؛ وهي تتلخص في نفع الخلق؛ إذ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لحكمة وغرض، والفعل من غير غرض سفه وعبث، والحكيم من يفعل أحد أمرين إما أن ينتفع أو ينفع غيره، ولمّا تقدّس الرب تعالى عن الانتفاع، تعيّن أنه إنما يفعل لينفع غيره؛ فلا يخلو فعل من أفعاله من صلاح.[٢]

يقول الفخرُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة: ٢٩.

"**فإن قيل:** فِعْله تعالى معلَّلٌ بغرض غير عائد إليه بل إلى غيره!!!

١ــ يراجع: مفاتيح الغيب ٦٢/٧، ط: دار الكتب العلمية.

٢ــ يراجع: شرح الأصول الخمسة ٥٠٦-٥٠٧.

قلنا: أولاً: عَوْد ذلك الغرض إلى ذلك الغير هل هو أولى لله تعالى من عَوْده إليه أو ليس أولى؟ فإن كان أولى فهو تعالى قد انتفع بذلك الفعل فيعود المحذور المذكور، وهو أنه لو كان كذلك كان مستكملاً بذلك الغرض، والمستكمل بغيره ناقص بذاته، وذلك على الله تعالى محال، وإن كان الثاني لم يكن تحصيل ذلك الغرض المذكور لذلك الغير غرضًا لله تعالى، فلا يكون مؤثرًا فيه.

وثانيًا: أن من فعل فعلاً لغرض كان عاجزًا عن تحصيل ذلك الغرض إلا بواسطة ذلك الفعل، والعجز على الله تعالى محال.

وثالثًا: أنه تعالى لو كان يفعل لغرض لكان ذلك الغرض هو رعاية مصلحة المكلفين، ولو توقفت فاعليته على ذلك لما فعل ما كان مفسدة في حقهم، لكنه قد فعل ذلك؛ حيث كلف مَن علم أنه لا يؤمن."[1]

والحق أن أفعال الله تعالى وأحكامه غير معللة بالأغراض؛ لأن ثبوت الغرض للفاعل من فعلٍ يستلزم استكماله بغيره، وثبوت علة لفعله يستلزم نقصانه في فاعليته، وليس يلزم من القول بأن أفعال الله تعالى غير معللة بالأغراض عبث في أفعاله تعالى؛ لأنها مشتملة على حكم ومصالح لا تُحصى؛ إلا أنها ليست عللاً لأفعاله ولا أغراضًا له.[2]

٣- المنزلة بين المنزلتين:

اختلف أهل القبلة في مسمى الإيمان في عرف الشرع؛ فأما الخوارج: فقد اتفقوا على أن الإيمان بالله يتناول المعرفة بالله، ويتناول طاعة الله في جميع ما أمر الله به من الأفعال والتروك؛ صغيرًا كان أو كبيرا؛ فقالوا: مجموع هذه

١ــ يراجع: مفاتيح الغيب ١٤١/٢، ط: دار الكتب العلمية.

٢ــ يراجع: المواقف لعضد الدين الإيجي ١٢/١- ٧٢/٣، ط: دار الجيل-بيروت، ت: د/عبد الرحمن عميرة.

الأشياء هو الإيمان، وترك كل خصلة من هذه الخصال كفر[١]، وأما المعتزلة: فقد اشترطوا في الإيمان العناصر الثلاثة: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأعضاء، وقالوا: إن من أخلّ بالاعتقاد فهو منافق، ومن أخلّ بالشهادة والقول فهو كافر، ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق[٢]، وبناء على نظرتهم تكلموا في مرتكب الكبيرة؛ فقالوا: مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا ولا كافرًا؛ لا في الاسم ولا في الحكم؛ بل في منزلة بين المنزلتين؛ فلا يُسمَّى مؤمنًا ولا كافرًا؛ وإنما يُسمَّى فاسقًا؛ وحكمه كذلك بين الحكمين؛ فلا يُوالى في الدنيا ولا تُقبل شهادته كالمؤمن، ولكنه يخالف الكافر أيضًا في إجراء بعض الأحكام عليه؛ فيُصلى عليه ويُدفن في مقابر المسلمين ويُورث كالمؤمن؛ أما في الآخرة فإنه يُخلَّد في النار خلود معصية، لا خلود كفر؛ وكل الفرق الذي يكون بينه وبين الكافر هو درجة العذاب وكيفيته؛ فإن دركته تكون أقل من دركة الكفار!![٣]

والمحقق يكتشف أن المعتزلة قد آل رأيهم إلى رأي الخوارج؛ فكلاهما حكم على صاحب الكبيرة بالإعدام؛ لكن حيثيات الحكم مختلفة!!

وأما جمهور السلف وأهل الحديث: فذكروا أن المعرفة إيمان كامل؛ وهو الأصل؛ ثم بعد ذلك كل طاعة إيمان على حدة؛ وهذه الطاعات لا يكون شيء منها إيمانًا إلا إذا كانت مرتبة على الأصل الذي هو المعرفة؛ ولم يجعلوا شيئًا من الطاعات إيمانًا ما لم توجد المعرفة والإقرار، ولا شيئًا من المعاصي كفرًا ما لم يوجد الجحود والإنكار.[٤]

١ــ يراجع: الملل والنحل للشهرستاني ١١٤/١ وما بعدها، ط: دار المعرفة-بيروت، ت: محمد سيد كيلاني.

٢ــ يراجع: شرح الأصول الخمسة ٨٠٢.

٣ــ التذكرة في الأصول الخمسة للصاحب بن عباد ص ٩٤.

٤ــ يراجع: مفاتيح الغيب ٢٣/٢، ط: دار الكتب العلمية.

وأما جمهور الأشاعرة فيرون أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط؛ ولا مسمى له غير ذلك؛ وهو مسماه اللغوي؛ فينبغي ألا يُنقل من معناه؛ لأن الأصل عدم النقل؛ إلا أنه أُطلق على تصديقٍ خاصٍّ بأشياء بيّنها الدين، ويجب ألا يذهب إلى تصورنا أن عدم اشتراط مشايخ الأشاعرة لأعمال الجوارح في حقيقة الإيمان يعني أنهم لا يهتمون بها؛ كل ما في الأمر أنهم يميزون بين الإيمان والإسلام؛ ويجعلون عمل الأعضاء من الإسلام لا من الإيمان.[١]

وبناء على ما سبق استعمل الفخرُ الفنقلةَ في رده على المعتزلة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ سورة البقرة: ٩٩؛ فيقول:

"**فإن قيل:** أليس صاحب الصغيرة تجاوز أمر الله، والفسق هو تعدي الإنسان ما حُدَّ له؟

قلنا: إنه إنما يسمى به كل أمر يعظم من الباب؛ فالفسق إنما يقال إذا عظُم التعدي، وإذا ثبت هذا فنقول: هنا وجهان في معنى الآية: أحدهما: أن كل كافر فاسق ولا ينعكس، فكأن ذكر الفاسق يأتي على الكافر وغيره، فكان أولى، الثاني: أن يكون المراد: ما يكفر بها إلا الكافر المتجاوز عن كل حد في كفره، والمعنى أن هذه الآيات لما كانت بينة ظاهرة، لم يكفر بها إلا الكافر الذي يبلغ في الكفر إلى النهاية القصوى."[٢]

١ــ يراجع: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني ٣٨٩/١، ط: مؤسسة الكتب الثقافية– لبنان، وشرح المقاصد للتفتازاني ٢٤٧/٢ وما بعدها، ط: دار المعارف النعمانية– باكستان.

٢ــ مفاتيح الغيب ١٨٢/٣، ط: دار الكتب العلمية.

(الحجاج مع أهل الكتاب):

واستعمل الفخرُ الفنقلة أيضًا في حجاجه مع أهل الكتاب، وذلك في عدة قضايا؛ منها:

١- دعواهم أنهم على دين الخليل (عليه السلام):

عند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ سورة البقرة: ١٣٥، يستعمل الفنقلة لبيان فساد هذه الدعوى، فيقول:

"**فإن قيل:** أليس أن كل واحد من اليهود والنصارى يدعي أنه على دين إبراهيم (عليه السلام)؟

قلنا: لمَّا ثبت أن إبراهيم (عليه السلام) كان قائلاً بالتوحيد، وثبت أن النصارى يقولون بالتثليث، واليهود يقولون بالتشبيه، فثبت أنهم ليسوا على دين إبراهيم (عليه السلام)، وأن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) لمَّا دعا إلى التوحيد كان على دين إبراهيم (عليه السلام)."[١]

فقد احتج اللهُ تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) بأبلغ حجة وأوجزها وأكملها، وهي أن يقول لهؤلاء: تعالوا نتبع ملة إبراهيم (عليه السلام) الذي لا خلاف عليه ولا على هديه، إذ ملته هي الحنيفية الأصيلة في إفراد الباري بالوحدانية.

٢- مناقضات أهل الكتاب:

وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة: ١٣٦، يستعمل

١ــ مفاتيح الغيب ٤/٧٠.

الفنقلة في إظهار مناقضات أهل الكتاب ومخالفاتهم للحق وكفرهم بالرسل (عليهم السلام)، فيقول:

"**فإن قيل:** كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟!

قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقًّا في زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود والنصارى لمَّا اعترفوا بنبوة بعض مَن ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوة محمد (ﷺ) مع قيام المعجز على يده، فحينئذ يلزمهم المناقضة، فظهر الفرق."[1]

فالمولى تعالى ذكره قد ذكر هنا جوابًا برهانيًّا، وهو أن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء (عليهم السلام) ظهور المعجز عليهم، ولمَّا ظهر المعجز على يد محمد (ﷺ) وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته؛ فإن تخصيص اليهود والنصارى البعضَ بالقبول والبعضَ بالرد يوجب المناقضة في الدليل، وهو ممتنع عقلاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٣- الأنبياء كانوا مُبرَّئين عن اليهودية والنصرانية:

وعند تفسير الفخر قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ سورة البقرة: ١٤٠، يستعمل الفنقلة لبيان أن الله أعلم وخبره أصدق، وقد أخبر في التوراة والإنجيل والقرآن على لسان محمد (ﷺ) أن أنبياء الله كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، يقول:

"**فإن قيل:** إنما يقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ لمن لا يعلم، واليهود والنصارى علموه وكتموه، فكيف يصح الكلام؟

١ــ مفاتيح الغيب ٤/٧٢.

قلنا: مَن قال: إنهم كانوا على ظنٍّ وتوهُّمٍ، فالكلام ظاهر، ومَن قال: علموا وجحدوا، فمعناه أن منزلتهم منزلة المعترضين على ما يُعلم أن الله أخبر به، فلا ينفعه ذلك مع إقراره بأن الله أعلم."[1]

وأرى أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يبطل قول مَن قال: إنهم كانوا على ظنٍّ وتوهُّمٍ؛ لأنه يدل على أنهم كانوا عالمين بأن إبراهيم ومن معه كانوا مباينين لليهودية والنصرانية، لكنهم كتموا ذلك!!!

وفي الآية كما ترى إقامة للحجة على أهل الكتاب، وإعلام لهم بأن تقاليدهم التي تَقَلَّدُوهَا وناطوا بها النجاة ما هي إلا ضروب من الكفر والفساد، وأن الله تعالى أعلم بما يرضيه، وفيها أيضًا تعريضٌ بغاية أظلمية أهلِ الكتابِ؛ لكتمانهم الحق من أجل الطعن في الإسلام، ولجدالهم في الحق بعدما تبين من أجل التعصب الأعمى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(الحجاج مع المشككين):

واستعمل الفخرُ الفنقلة أيضًا في حجاجه مع المشككين، حيث يفترض شخصية تقوم بطرح استشكال على الآية التي يفسرها؛ ثم يجيب عن ذلك بطرق إقناعية موظفًا اللغة وبلاغتها في ذلك، ومن ذلك:

١- عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٥٨، يقول الفخر:

"**فإن قيل:** هلا قال نمروذ: فليأت ربك بها من المغرب!!!

١ــ مفاتيح الغيب ٤/٧٧.

قلنا: الجواب من وجهين: أحدهما: أن هذه المحاجة كانت مع إبراهيم (عليه السلام) بعد إلقائه في النار وخروجه منها سالمًا، فعلم أن من قدر على حفظ إبراهيم (عليه السلام) في تلك النار العظيمة من الاحتراق يقدر على أن يأتي بالشمس من المغرب، **والثاني:** أن الله خذله وأنساه إيراد هذه الشبهة نصرة لنبيه (عليه السلام)."[1]

وربما لم يقله لأنه خاف أن لو سأل ذلك دعا إبراهيمُ (عليه السلام) ربَّه، فكان ذلك زيادة في فضيحته وانقطاعه[2]، إذ لو قال هذ الكلام أو أورد هذا السؤال لكان من الواجب أن تطلع الشمس من المغرب، تأييدًا لنبيه الخليل، كما هو شأن المعجز عموما، وما ذلك على الله بعزيز.

وربما يقال: إنه مع وضوح الحجة؛ فإن الله تعالى لا يرشد الظلمة إليها في الاستدلال على ظلمهم، كما يرشد إليه قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والظلم أيضًا مما يحول بين المرء وعقله؛ إذ عقل الظالم يشتغل بالظلم تاركًا التفكر في الحجج، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٢- وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة: ٢٦١، يقول الفخر:

"**فإن قيل:** فهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة حتى يضرب المثل بها؟!

قلنا: الجواب عنه من وجوه: الأول: أن المقصود من الآية: أنه لو علم إنسان يطلب الزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة، ما

١ــ مفاتيح الغيب ٢٣/٧.

٢ــ معالم التنزيل ٣١٧/١.

كان ينبغي له ترك ذلك ولا التقصير فيه، فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر في الآخرة عند الله ألا يتركه إذا علم أنه يحصل له على الواحدة عشرة ومائة وسبعمائة، وإذا كان هذا المعنى معقولاً سواء وجد في الدنيا سنبلة بهذه الصفة أو لم يوجد، كان المعنى حاصلاً مستقيمًا."[1]

ومعنى كلام الفخر أن ذلك مُتَصَوَّرٌ غير مستحيل، وما لا يكون مستحيلا يجوز ضَرْب المثل به وإن لم يُوجَد.

وحاصل المعنى أن الآية بيان لسعة عطاء الله تعالى وعظيم كرمه وفضـــله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١ــ مفاتيح الغيب ٧/٤٠.

الخاتمة

اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

وختامًا،،،

هذا هو غاية الوسع ومنتهى الطوق – ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها – وقد توصلت بفضل الله تعالى من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

١- استغل ما حباه الله تعالى به من الذكاء النادر وحدة الذهن والحافظة المستوعبة، حتى حصّل لنفسه استقلالية فكرية في جميع علوم عصره، واشتهر في الآفاق؛ فكان (رحمه الله) مفسرًا أصوليًّا فقيهًا متكلمًا فيلسوفًا.

٢- شارك الفخر في صراعات عصره الفكرية لينتصر لرأيه، فلقد كان جهورًا بما يؤمن به وإن جرّ عليه ذلك الشدائد والويلات، ودفع حياته ثمنًا لذلك.

٣- عني الفخر بالحديث عما في الآيات من فوائد ونكات، وعبر وعظات، وأسباب تنزلات، وإظهار المناسبات بين السور وبين الآيات، واهتم بنقل أقوال المفسرين؛ مما يجعلني أقول: إن التحقيق هو أن يقال: في تفسير الفخر كل شيء مع التفسير.

٤- أكمل الفخر تفسيره إملاء، وتمكّن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي، وبقي شيء من الأمالي بيد بعض تلاميذه، فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق الفرع بالأصل؛ فالكتاب بروحه هو للرازي كله، والقرأة لمفاتيح الغيب من أوله إلى آخره يجدون نسقًا فكريًّا واحدًا، ولا يكادون يلحظون تفاوتًا في المنهج.

٥- الفنقلة أسلوب نافع في التعليم والتدريس والتأليف، ومن فوائده شحذ الذهن، وتحفيز الفكر، وتذليل صعب المسائل، ودفع التوهم والإشكالات.

٦- وردت صيغ الفنقلة في غالب كتب التفسير، لكن المفسرين يتفاوتون في هذا ما بين مقل ومكثر.

٧- وظّف المفسرون هذه الطريقة في توسيع وإثراء المعاني القرآنية، والكشف عن الغوامض، واستطاعوا بفضل ذلك أن يناقشوا المسائل المختلفة من خلال هذا الأسلوب في سائر فنون العلم في تفسيرهم لكتاب الله الكريم.

٨- أغلق المفسرون بأسلوب الفنقلة على خصومهم كلّ منافذ الردّ بتوقُّع أسئلتهم والجواب عليها قبل أن يطرحوها.

٩- القارئ لتفسير الرازي تطالعه هذه العبارة كثيرا؛ وهي: فإن قيل؟ قلنا:

١٠- استخدم الفخر (رحمه الله) أسلوب الفنقلة في بيان معنى النص الكريم، وإبراز المراد منه، وإيصال هذا المعنى للقارئ بأقرب صورة ممكنة!!!

١١- وقف الرازي وقفات جمالية تبين رقي الأسلوب القرآني، ويمكننا تلمس ذلك من خلال فنقلاته البلاغية؛ حيث أظهر لنا فوائد جمة المحاسن بعيدة الغاية، وبين مراتب الحسن في الألفاظ الكريمة.

١٢- وظّف الفخرُ الفنقلة أيضًا لبيان ما حوته الآيات القرآنية الكريمة من أحكام وحِكَمٍ.

١٣- دفع الفخرُ بالفنقلة غير المراد مما قد يُتوهم من ظاهر الآيات القرآنية مستعملاً في ذلك الدلالات اللغوية والبلاغية والمنطقية، واستطاع بفضل هذا أن يلج أبوابًا مختلفة الفنون؛ ليدحض تلك أباطيل مثيري الشبهات المتبجحين بجهلهم!!!

١٤- لجأ الإمام الرازي إلى الفنقلة في الحجاج مع خصومه؛ حيث افترض خصمًا من خصومه يقوم بطرح سؤال معين؛ وهو يجيب عليه بما يقطع أدلته.

١٥- أراد الفخر باستخدام الفنقلات إثارة المتلقي وشحذ ذهنه وتحفيز فكره.

أهم التوصيات

يوصي البحث بضرورة من يتصدى للتعليم والتأليف بأسلوب الفنقلة، كما يوصي بالعناية بفنقلات المفسرين؛ لأن كثرتها عند بعض المفسرين؛ كالإمام الطبري والإمام الزمخشري والإمام الرازي والإمام الخازن يجعل منها ميدانًا واسعًا خصبًا لكثير من الرسائل والبحوث العلمية؛ لاستخراج ما حوته من درر ونفائس.

والصلاة والسلام على خير الأنام، والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة المقدسي، ط: دار الكتب العلمية.

٣- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٤م، ت: محمد أبو الفضل.

أحكام القرآن للجصاص، ط: دار الكتب العلمية، ت: عبد السلام شاهين.

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٥- أسباب النزول للواحدي، ط: مؤسسة الحلبي.

٦- أصول العدل والتوحيد للقاسم الرَّسِّي ضمن سلسلة رسائل العدل والتوحيد للدكتور محمد عمارة، ط: مطابع الشروق- القاهرة، الطبعة الثانية.

٧- الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج، ط: مؤسسة الرسالة، ط٣: ١٩٨٨م.

٨- الأم للإمام (ﷺ)، ط: دار المعرفة- بيروت- ١٣٩٣هـ.

٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي، ط: دار الفكر- بيروت.

١٠- البحر المحيط لأبي حيان، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ، ت: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض.

١١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للحافظ السيوطي، ط: المكتبة العصرية – لبنان، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٢- تاريخ الحكماء للقفطي، ط: مكتبة الخانجي.

١٣- تاريخ الخلفاء للسيوطي، ط: مطبعة السعادة – مصر، ط١: ١٣٧١هـ، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

١٤- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ط: الدار التونسية للنشر والتوزيع – تونس- ١٩٩٧م.

١٥- تفسير ابن أبي حاتم لابن أبي حاتم الرازي، ط: المكتبة العصرية- صيدا، ت: أسعد الطيب.

١٦- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد بن علي رضا القلموني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٧- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢: ١٤٢٠هـ، ت: سامي بن محمد سلامة.

١٨- تفسير القرآن لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني المروزي الشافعي، ط: دار الوطن- السعودية- ١٩٩٧م، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس.

١٩- تفسير المنار للشيخ رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٠م.

٢٠- تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان لأبي الفضائل الحموي، ط: مطبعة الحجاز – دمشق.

٢١- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني، ط: مؤسسة الكتب الثقافية- لبنان.

٢٢- الثقات لأبي حاتم بن حبان، ط: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند- ١٩٧٣م.

٢٣- جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبـــو جعفر الطبري، ط: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ، ت: الشيخ أحمد شاكر.

٢٤- الجامع الصحيح لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ط: دار الجيل- بيروت.

٢٥- الجامع الصحيح لأبي عيسى الترمذي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ت: الشيخ أحمد شاكر.

٢٦- الجامع الصحيح المختصر من أحاديث رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري، ط: دار ابن كثير- اليمامة، ط٣: ١٤٠٧هـ، ت: د/ مصطفى ديب البغا.

٢٧- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، ط: عالم الكتب- الريـــاض.

٢٨- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العـــرب لأحمـــد بـــن إبـــراهيم الهاشمي، ط: مؤسسة المعارف.

٢٩- الجواهر المضية في طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء القرشي،ط: مير محمد كتب خانه – كراتشي.

٣٠- الجيم لأبي عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني، ط: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة- ١٩٧٤م، ت: إبراهيم الأبياري.

٣١- حجة القراءات لأبي زرعة بن زنجلة، ط: مؤسسة الرسالة، ت: سعيد الأفغاني.

٣٢- الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي، ط: دار المأمون للتراث- دمشق، ت: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي.

٣٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ت ٤٣٠هـ، ط: دار السعادة – مصر- ١٣٩٤هـ.

٣٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية- الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٣٥- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، ط١: ١٩٩٥م، ت: محمد التنجي.

٣٦- الرسالة للإمام الشافعي، ط: مكتبة الحلبي- مصر، ط١: ١٩٤٠م، ت: الشيخ أحمد شاكر.

٣٧- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للإمام الألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٣٨- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ط: المكتب الإسلامي- بيروت، ط٣: ١٤٠٤هـ.

٣٩- زهرة التفاسير لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى، ط: دار الفكر.

٤٠- سقط الزند لأبي العلاء المعري، ط: بوزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر سنة ١٩٤٥م.

٤١- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، ط: مؤسسة الرسالة.

٤٢- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد العَكري الحنبلي، ط: دار ابن كثير- دمشق – بيروت، ط١: ١٤٠٦هـ، ت: محمود الأرناؤوط.

٤٣- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٤- شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط٢: ١٣٩٢هـ.

٤٥- شرح رضي الدين الاستراباذي على الكافية لابن الحاجب، ط: جامعة قار يونس- ١٣٩٨هـ.

٤٦- شرح الشفا للخفاجي، ط: القسطنطينية – ١٢٦٧هـ.

٤٧- شرح المقاصد للتفتازاني، ط: دار المعارف النعمانية- باكستان.

٤٨- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأبي الحسين أحمد بن فارس ت: ٣٩٥هـ، الناشر: محمد علي بيضون، ط١: ١٤١٨هـ.

٤٩- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ط: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ، ت/ د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو.

٥٠- طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، ط: عالم الكتب- بيروت، ت: د/ الحافظ عبد العليم.

٥١- طبقات فحول الشعراء لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي، ت ٢٣٢هـ، ط: دار المدني- جدة، ت: محمود محمد شاكر.

٥٢- طبقات المفسرين العشرين لجلال الدين السيوطي، ط: مكتبة وهبة – القاهرة، ط١: ١٣٩٦هـ، ت: علي محمد عمر.

٥٣- العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي، ط: دار الكتب العلمية، ت: محمد السعيد زغلول.

٥٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ط: دار مكتبة الحياة- بيروت.

٥٥- غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين بن الجزري، ط: مكتبة ابن تيمية.

٥٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط: دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ.

٥٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني، ط: دار ابن كثير- دمشق.

٥٨- فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية لمحمد صالح الزركـــان، ط: دار الفكر.

٥٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، ط: مكتبة الخانجي.

٦٠- فنقلات المفسرين. دراسة نظرية وتطبيقية على سورة الفاتحة للدكتورة خلود شاكر- جامعة القصيم مجلة العلوم الشرعية العدد ٣ لسنة ٢٠١٩م.

٦١- الكامل في القراءات لابن جُبَّارة الهذلي اليشكري المغربي، ط: مؤسسة سما للتوزيع والنشر.

٦٢- الكتاب لسيبويه عمرو بن عثمان، ط: مطبعة الخانجي- ١٩٨٨م، ت: عبد السلام هارون.

٦٣- الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ت: عبد الرزاق المهدي.

٦٤- لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٥هـــ، ت: محمد علي شاهين.

٦٥- لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، ط: دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى.

٦٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ط: دار الكتب العلمـــية، ط١: ١٤١٣هـــ، ت: عبد السلام عبد الشافي.

٦٧- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي، ط: حيدر آباد – ١٣٣٨هـــ.

٦٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للإمام السيوطي، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٨هـ، ت: فؤاد منصور.

٦٩- معالم التنزيل للإمام محيي السنة البغوي، ط: دار طيبة للنشر، ط٤: ١٤١٧هـ، ت: عثمان جمعة- سليمان مسلم الحرش- محمد عبد الله النمر.

٧٠- معجم البلدان لياقوت الحموي، ط: دار الفكر.

٧١- مفاتيح الغيب للفخر الرازي للإمام العالم العلامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط: دار إحياء التراث العربي، ط٣: ١٤٢٠هـ.

٧٢- مفاتيح الغيب للإمام العالم العلامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١: ١٤٢١هـ.

٧٣- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط: دار القلم- دمشق.

٧٤- الملل والنحل للشهرستاني، ط: دار المعرفة - بيروت، ت: محمد سيد كيلاني.

٧٥- المواقف لعضد الدين الإيجي، ط: دار الجيل-بيروت، ت: د/ عبد الرحمن عميرة.

٧٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين ابن خلكان البرمكي ت ٦٨١هـ، ط: دار صادر- بيروت، ت/ إحسان عباس.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
البحث باللغة العربية	٢٠٧
البحث باللغة الإنجليزية	٢٠٨
المقدمة	٢٠٩
الفصل الأول: الفخر الرازي. عصره وحياته وتفسيره	٢١٥
حياة الفخر الرازي	٢١٧
الشبهات المثارة حول تفسير الفخر	٢٢٤
منهج الفخر في مفاتيح الغيب	٢٣٠
الفصل الثاني: أسلوب الفنقلة وعناية العلماء به	٢٤٧
الفصل الثالث: عناية المفسرين بالفنقلات	٢٥٧
الفصل الرابع: مجالات استخدام الفنقلة عند الفخر الرازي	٢٧٣
المبحث الأول: بيان معنى النص الكريم	٢٧٥
المبحث الثاني: تجلية وجوه الإعجاز البلاغي	٣٠٣
المبحث الثالث: تعليل الأحكام القرآنية وبيان حِكَمها	٣٣٧
المبحث الرابع: دفع الشبه وتوهم غير المراد	٣٥٠
المبحث الخامس: الحجاج والفنقلة	٣٧٨
الخاتمة وأهم التوصيات	٣٨٩
فهرس المصادر والمراجع	٣٩٢
فهرس الموضوعات	٣٩٨

بحمد الله تعالى